الزائرة الغريبة

ومجموعة قصص أخرى

للكاتبة أمينة هاشم الكوهجي

الزائرة الغريبة
ومجموعة قصص أخرى

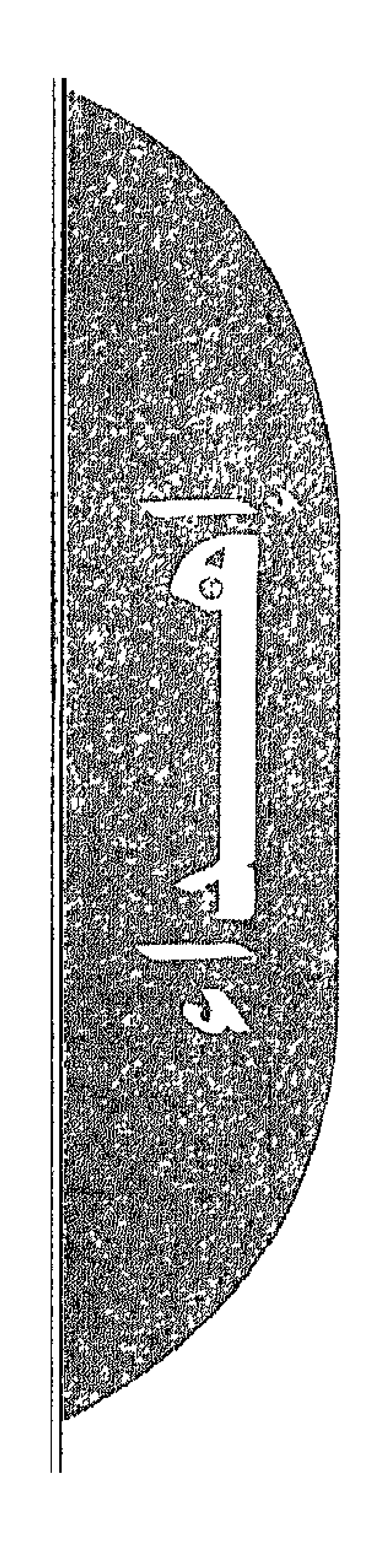
للكاتبة / أمينة هاشم الكوهجي

تنفيذ وإخراج



شركة آر ميديا ذ.م.م
هاتف : 17325672 973+
فاكس : 17325673 973+
ص. ب : 50415 المحرق
مملكة البحرين
info@rmedia.com
www.rmedia.com

رقم الناشر الدولي :-
ISBN 978-99958-2-012-1
رقم الإيداع :-
د.ع 7586/ 2009 م



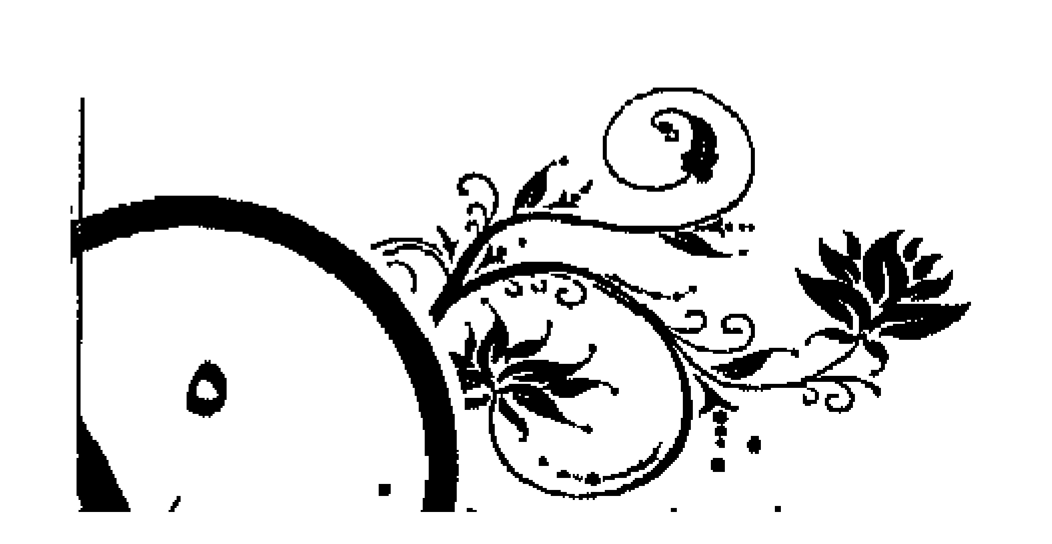
إهـداء

إلى أبنائي وأخوتي وأخواتي.

إلى كل أفراد عائلتي الكبيرة بعددها وبحبها وبترابطها.

إلى كل من شجعني وساندني عند إصدار مجموعتي القصصية الأولى ((جحيم المطلقات)).

إليكم جميعاً أهدي مجموعتي الثانية ((الزائرة الغريبة)) راجية أن تنال إعجابكم ورضاكم.



المقدمة

الرجل والمرأة كائنان مختلفان ، ومتناقضان ، ولكنهما مكملان لبعضهما البعض في هذا الكون .

وقد زخرت مجلداتنا وكتبنا عبر العصور بآلاف القصص عن علاقتهما بكل ما تحويه من مظاهر هذا الإختلاف .

وما مجموعتي القصصية الثانية (الزائرة الغريبة) إلا محاولة متواضعة لنقل صور من هذه العلاقات الذي ما تزال فصولها وصراعاتها مستمرة بين الرجل والمرأة في مجتمعنا البحريني وفي جميع المجتمعات البشرية على سطح هذا الكوكب .

حب وفراق ، سعادة وألم ، حنين وكره ، مشاعر متباينة جمعت بين شخوص و أبطال هذه المجموعة في مواقف حياتية مختلفة .

أصدقكم القول أنني عشت نفسي معهم جميعًا في عالم الخيال لفترة ليست بالقصيرة حتى أصبحوا جزءً لا يتجزأ مني وترددت طويلاً قبل أن أنقلهم لعالم الواقع من خلال ما تم نشره منها في جريدة الأيام وعلى فترات متباينة.

و نزولا عند رغبة بعض المقربين قررت أن أعيد نشرها عبر مجموعتي القصصية الثانية (الزائرة الغريبة) بطرح ورؤية جديدين.

راجية أن تنال حظها من القبول والتشجيع لديكم ما نالته المجموعة القصصية الأولى

أمينة هاشم الكوهجي



الزائرة الغريبة..



المشهد الأول

- جناح (٥٦) - نعم لقد جهزنا الغرفة لاستقبال المريضة - نعم نعم أجهزة التنفس وجهاز تنظيم ضربات القلب جاهزة - بعد ربع ساعة - حسنًا نحن في الانتظار .

وضعت (فاتن) سماعة الهاتف ، والتفتت إلى (عماد)الذي كان يعيد ترتيب الأوراق في إحدى الملفات على طاولة الاستقبال قائلة :

- عماد - مريضة القلب التي أجريت لها العملية هذا الصباح ستصل إلى الجناح خلال ربع ساعة ـــ لقد جهزت لها الغرفة (١٣) تولى نقلها إلى الغرفة بالنيابة عني ريثما اتفقد السيدة فاطمة لو سمحت.

ابتسم لها بود واضح وهو يهمس :

- حاضر يا حلوتي - كلامك أوامر .

- عماد ـــ أرجوك ألم أطلب منك مرارًا ألا تحدثني بهذه الطريقة وخاصة أثناء العمل ؟

- لا أستطيع - كلما نظرت إلى وجهك الجميل لا أستطيع التحكم في مشاعري .

اقترب منها حتى كاد يلامس بجسده جسدها النحيل وهو ينظر إليها بحب جارف فتململت فاتن بضيق وهي تنظر حولها بفزع خشية أن يلمحهما أحد، فزفر عماد بقوة صائحًا :

- لم الخوف يا فاتن ؟!! أنت خطيبتي ، ولولا مشكلة الشقة لكنّا متزوجين منذ أكثر من عامين - الجميع هنا يعلم بذلك .

- عماد ـــ هذه قضايا خاصة لا مجال لها هنا - هناك زوار ومرضى وقد لا يدركون العلاقة التي تربطنا .



- لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر -

صرخ بحدة ، فاتسعت عينا فاتن من الرعب وأشارت متوسلة إلى عماد لكي يخفض من صوته فاسترسل محتدًا :

- متى نعثر على شقة مناسبة ؟ متى نتزوج ؟

ارتفع صوت جرس النداء من غرفة المريضة فاطمة فهمست فاتن في رجاء:

- عماد ــــ المرضى ينتظرون - دعنا نكمل حديثنا فيما بعد.

ثم دفعت أمامها عربة الأدوية ، بينما ارتفع صوت الجرس ثانية .

- قادمة - قادمة .

صاحت فاطمة ، ثم التفتت إلى عماد وهي توصيه :

- عماد - أرجوك المريضة قد خرجت للتو من عملية خطيرة تأكد من سلامة عمل الأجهزة قبل وصولها - اتفقنا .

هز عماد رأسه موافقًا ، ثم أرسل لها قبلة في الهواء ، ابتسمت فاتن في دلال وسارت مسرعة وهي تتمتم :

- مجنون - حقًا إنه مجنون - لا أدري كيف وافقت على الارتباط به.

أغمضت عينيها لدقائق وهي تستعيد قصة لقائهما بينما كانت تعيد ترتيب سرير المريضة فاطمة بعد أن حقنتها بالدواء المسكن وراحت في سبات عميق.

تذكرت عندما التقت بعماد أول مرة عندما كانا لا يزالان طالبين في كلية التمريض، شد انتباهها من أول وهلة ، فقد كان لا يهدأ لحظة واحدة ويحيل أي قاعة درس يلجها إلى خلية نحل من الضحك والمزاح ، وحتى أساتذته لم يسلموا قط من تعليقاته ومزاحه اللاذع ولكنه كان طالبًا موهوبًا ومتفوقًا في مجال دراسته ، ولا يتوانى للحظة عن مساعدة رفاقه إذا ما احتاجوا شيئًا في دراستهم .



وكان يتولى تنظيم الحفل الختامي للكلية، وجميع الرحلات الترفيهية التي تنظمها ، على عكسها هي رغم تفوقها فقد كانت هادئة ومنطوية ولا تكاد تنطق بحرف مع أي من زميلاتها وزملائها رغم كل عبارات الإطراء التي تلاحقها في كل مكان بسبب جمالها الباهر .
كانت تكتفي بالجلوس وحيدة ترقب عماد بصمت ، لقد أحبته من أول نظرة ولكنها لم تحلم يومًا أن تلفت انتباهه لكثرة المعجبات من حوله .
حتى كان يوم وقد بدأ الطلبة يستعدون كعادتهم لحفلهم الختامي وبدأ عماد يطوف من بينهم يسجل ما سيشارك به كل منهم في الحفل، حتى وصل عماد إلى حيث تجلس فاتن مع صديقتها أمل في ركن قصي من الكافيتريا ، وقف أمامهما وهو يسجل بعض الملاحظات في كراسته قبل أن يبادرهما قائلاً:

– ها يا أمل بم ستشاركين في الحفل ؟

ثم وقف مشدوهًا ينظر إلى فاتن ، كانت هي المرة الأولى التي يراها فيها عن قرب رغم أنهما معًا في الكلية منذ عامين ، فقد حرصت فاتن لخجلها الشديد أن تبقى بعيدة عن الأنظار ، وتكتفي بحضور المحاضرات معهم وتغادر متعجلة حال انتهائها .

– لم تعرفيني على الآنسة يا أمل ؟ هل هي ضيفة ؟

ضحكت أمل ضحكة مجلجلة ثم كتمتها بيدها بعد أن لكزتها فاتن غاضبة بمعصمها وأجابت بصعوبة :

– الآنسة فاتن زميلتنا منذ عامين يا عماد ، لقد حضرت معنا كل المحاضرات وهي مثلك من المتفوقات ، وعلى فكرة فاتن موهوبة أيضا في الرسم وكتابة الشعر .

– يكفي .

صرخت فاتن محتدة وهي تتميز من الغيظ ، ولكن أمل استرسلت في كلامها



رغم اعتراض فاتن :

- فاتن تسجل أشعارها في كراسة تحتفظ بها معها أينما ذهبت، وهي معها الآن .

- أمل يكفي .

صرخت فاتن ، وهبت واقفة وهي تهم بمغادرة الكافتريا ، فاعترض عماد طريقها وهو يرمقها بنظرات متفحصة :

- أرجوك آنسة فاتن - لا تغادري المكان بهذه السرعة ، فقط امنحيني دقائق .

- آسفة - فوالدي ينتظرني الآن .

- لن أعطلك - فقط أنا مصر أن ألقي نظرة على كراسة الشعر الخاصة بك أرجوكِ

تراجعت فاتن خطوات إلى الوراء فزعة وهي تضم كراستها بقوة إلى صدرها، ثم نظرت بغضب إلى أمل وهي تتوعدها في سرها بأقسى عقاب.

تقدّم منها عماد بثقة وهو يهمس بعذوبة :

- آنسة فاتن - أرجوك أنا متشوق لقراءة شعرك لو سمحت لي

- في الحقيقة أمل تبالغ كثيرًا - ما أكتبه مجرد خواطر بسيطة لا ترقى لمستوى الشعر ولا تستحق أن تضيع وقتك في قراءتها .

- دعي الحكم عليها لي - فقط اسمحي لي بإلقاء نظرة عليها.

سلمت فاتن الكراسة بيدين مرتجفتين وهي تدعو في سرها لو تنشق الأرض وتبتلعها ففي هذه الكراسة دونت فاتن تفاصيل قصة حبها الصامت لعماد والتي تعرف أمل بكل تفاصيله .

لقد تعمدت أمل أن يقرأ عماد شعر فاتن ليدرك مكانته في قلبها ، وقد كان. وسرعان ما شاع خبر حبهما بين جميع الطلبة وقد سعدوا كثيرًا بخبر خطبتهما والذي تم خلال أسابيع .



المشهد الثاني

استلقت المريضة على السرير ، وقد أحاطتها الأجهزة والأنابيب ، بينما وقفت فاتن بجانبها تتأكد من سريان المحلول و من انتظام عمل جهاز منظم ضربات القلب .

أطل وجهه عماد باسمًا وهو يهمس :

– فاتن – – زوج المريضة وأولادها يودون رؤيتها لثوان .

– لا يمكن ذلك – فتعليمات الطبيب تمنع زيارتها بتاتًا حتى تتجاوز مرحلة الخطر يمكنهم مراقبتها عبر الزجاج .

انصرف عماد ، بينما بقيت فاتن تسجل حرارة المريضة ، وفجأة أحست بأنفاس حارة وصوت تنفس مسموع من خلفها ، فالتفتت فجأة وهي تتوقع ان يكون أحد ذوي المريضة قد غافل الممرضات بالخارج وتسلل داخلاً ولكنها لم تجد أحدًا فهزت رأسها وهي تردد :

– يبدو أن آثار التعب قد بدأت تظهر عليّ .

أعادت ترتيب الغطاء على المريضة ، ثم انزوت في كرسي قرب النافذة وأغمضت عينيها في محاولة لاستعادة بعض حيويتها .

غفت لفترة ثم انتبهت على صوت حركة قرب سرير المريضة ، رفعت رأسها في محاولة لمعرفة القادم ولكنها لم تر غير أطراف ثوب أبيض عبر الباب الذي أوصد بهدوء .

أسرعت نحو الباب وفتحته ثم أطلت بوجهها وهي تتساءل (هل وصلت أمل إلى الجناح قبل موعدها ؟)

ولكنها لم تجد أحدًا في الممر الذي بدا هادئًا فقد مضت ساعة على انتهاء وقت الزيارة ، فعادت إلى كرسيها وأغلقت عينيها ثانية بعد أن ألقت نظرة خاطفة على المريضة .



انتبهت ثانية على يد تهزها برفق :

– فاتن – فاتن – يمكنك الذهاب إلى المنزل وأخذ قسط من الراحة.

تمطت فاتن بتكاسل وهي تنظر ممتنة لأمل ، فقد كانت بحق منهكة وتحتاج لحمام دافئ تندس بعده في فراشها ، وقفت للحظات ثم بدأت بمغادرة الغرفة بعد أن حيت أمل ولكنها تسمرت في مكانها وسط الغرفة وهي تشير إلى باقة من الريحان وُضعت بعناية قرب وسادة المريضة .

– من !! من أحضر هذه الباقة ؟!! لم تكن موجودة قبل أن أغفو؟

– عم تتحدثين يا فاتن ؟ أي باقة ؟

فأشارت فاتن إلى الباقة في ذعر وهي تتلفت من حولها فسألتها أمل قائلة:

– ألم تقولي أن الطبيب منع زيارتها ؟ فمن سيحضر لها هذه الباقة؟!!

– لا أعلم فأنا لم أغادر غرفة المريضة منذ وصولها إلى الجناح حسب تعليمات الطبيب – صدقيني يا أمل .

– لا عليكِ – ربما استغل أحد أقاربها نومك وتسلل إلى الغرفة – عمومًا دعَينا نبقي هذا الأمر سرًا بيننا حتى لا تتسبب في مشكلة لكِ – اتفقنا .

هزت فاتن رَأسها موافقة وهي تغادر الغرفة غير مصدقة ما حدث .



المشهد الثالث

- يكفي ياسامي —— فأعذارك لم تعد تقنعني - لا شيء يبرر تركك للأولاد بمفردهم في المنزل أثناء مناوبتي الليلية رغم وعدك أن تلازمهم وتهتم بهم لحين عودتي ولولا عناية الله وسرعَة تصرف أسامة لما نجا الأطفال من الحريق الذي تسبب به ابننا الصغير محمد حين غافل الجميع وأشعل عود ثقاب في غرفة الجلوس .

- حصل خير يا أمل - لماذا تبالغين في تصوير الأمور ؟ هذه حوادث تحدث في كل البيوت .

- حوادث !! لا تحاول التهرب كعادتك من نتائج استهتارك وعدم تحمّلك للمسؤولية لقد مللت من حياتك العابثة ومجونك ومغامراتك النسائية التي لا تنتهي - لا شك أنك تركت الأطفال لوحدهم في المنزل دون رعاية لتقابل إحداهن .

- أمل - لماذا تظلمينني دائمًا لقد تركت الأطفال لساعة فقط بعد اتصال طارئ من أحد اصدقائي - لقد كان في محنة ويحتاج لمساعدتي .

- محنة ؟ صدقني لا أحد يعيش في محنة مثلي ؟ أنت تنفق كل راتبك على هذه السهرات ولا يبقى لي والأولاد سوى الفتات ولولا راتبي لما استطعنا تدبير أمورنا - لم أعد اتحمل المزيد .

انتبهت أمل إلى تردد صوتها الغاضب عبر الممر المظلم فهمست في ضيق:

- صدقني لولا الأولاد لما قبلت بالاستمرار في هذه الحياة البائسة معك - لالا لاتحاول أن تعدني بأي شيء لقد سئمت وعودك ولم



أعد أصدقها – لا فائدة – عليّ أن أعود إلى عملي – وداعًا .
وضعت سماعة الهاتف في عنف وهي تزفر بعمق وأغمضت عينيها في أسى واضح ولكنها انتبهت على يد تهزها بعمق ، فتلفتت حولها بفزع ولكنها لم تر أحدًا .
كانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحًا ، والهدوء يعم الجناح ، نظرت عبر الممر فلمحت امراة في الخمسين من عمرها ترتدي ملابس بيضاء وقد حملت في يدها زجاجة محلول وهيُ تشير غاضبة إلى الغرفة (١٣).
انتصبت أمل واقفة في ذعر وهي تتمتم وتشير في رجاء :
– من أنت ؟!! وماذا تحملينْ في يدكِ ؟ أرجوك يا سيدتي لا يمكنك دخول هَذه الغرفة فالزيارة ممنوعةَ ، المريضة ما تزال في حالة حرجة .
ولكن السيدة دفعت الباب بقوة ودخلت وهي ما تزال تمسك بزجاجة المحلول فأمسكت أمل بسماعة الهاتف وهي تتحدث بذعر :
– الأمن – لدينا مشكلة في جناح (٥٦) زائرة غريبة دخلت للتو إلى مريضة ممنوعة من الزيارة —— نعم متأكدة توجد زائرة في هذا الوقت المتأخر – لا أعلم كيف تمكنت من الدخول دون أن تلحظوها – أسرعوا أرجوكم .
ثم اندفعت تجري باتجاه الغرفة ، كان السكون مخيّمًا فيها ، فتلفتت أمل بذعر تبحث عن السيدة المجهولة فلم تجد لها أثرًا —— بحثت في الحمام وفتحت أبواب الخزانة ، انحنت تفتش تحت السرير ، ثم وقفت في وسط الغرفة تنظر بذهول إلى الطاولة أمام المريضة حيث لاحظت زجاجة محلول فارغة لم تكن موجودة بالأمس .
هرعت إلى ذراع المريضة تتفحصها فلاحظت آثار لزقة جديدة طرية تم تثبيتها منذ لحظات .



- لا يمكن - كان من المفترض أن أقوم باستبدال زجاجة المحلول فمن قام بذلك بالنيابة عني ؟!! غير معقول .

خرجت من الغرفة وهي تتلفت مذعورة ثم غطت فمها برعب حين لمحت الزائرة الغريبة عند باب المصعد تحدّق فيها بغضب قبل أن تندس داخله .

وقفت أمل أمام باب المصعد الذي كان يهبط ثم ارتفع ثانية فجأة فتراجعت إلى الخلف مذعورة ، ولكنها تنفست الصعداء حين أطل وجه حارس الأمن فسألته بلهفة :

- هل قابلتها ؟!! لقد هبطت للتو .

- من ؟!! لم أصادف أحدًا أثناء قدومي .

- هل أنت متأكد ؟

- بالطبع يا أمل - لم أغادر البوابة منذ استلامي للمناوبة هذه الليلة ، يبدو أنك متعبة.



المشهد الرابع

أمسكت فاتن بسماعة الهاتف وهي تحاول جاهدة تهدئة أمل:

– اسمعيني يا أمل – اهدئي قليلاً —— ربما كانت إحدى المريضات ولم تستطيعي التعرّف عليها بسبب الظلام —— لا يمكن أن يدخل زائر في هذا الوقت إلى المستشفى دون أن يلحظه حرّاس الأمن.

– وزجاجة المحلول يا فاتن ؟ من غيّر للمريضة الزجاجة ؟؟!!

– ربـما غيرتيها ونسـيتِ بسبب التعب – صدقيني هذا ما حصل

– حسنًا أراك هذا المساء .

هزت رأسها بأسى وهي تتمتم :

– مسكينة – يبدو أن مأساتها مع زوجها قد أثرت على أعصابها.

نظرت إلى جهاز المراقبة الرئيسة لأجهزة التحكم في القلب الموصل بغرف المرضى لتتأكد من عملها ، تابعت عمل الأجهزة في غرف المرضى ثم انتقلت إلى شاشة الغرفة (١٣) .

انتفضت واقفة وهي تتابع قراءة الجهاز ثم أمسكت بسماعة الهاتف وهي تتحدث بانفعال واضح :

– البدالة – أرسلوا نداءًا عاجلاً لفريق طوارئ الإنعاش قلب المريضة في الغرفة (١٣) توقف عن العمل —— أسرعوا .

ثم جرت تزفر بقوة وهي تدفع أمامها عربة الاسعافات ، دخلت الغرفة مسرعة ولكنها وقفت فجاة تنظر إلى الداخل برعب شديد —— حيث انتصبت بجانب المريضة سيدة غريبة الشكل وهي تمسك يد المريضة بحنان بالغ .



- من - من أنت ؟!! وكيف دخلت إلى هنا ؟ أرجوكِ انصرفي بسرعة المريضة في حالة حرجة .

التفتت إليها السيدة فلمحت دموعًا غزيرة تنهمر من عينيها وتسيل على خديها وهي تشير إلى المريضة تطلب منها مساعدتها .

سمعت فاتن صوت باب المصعد وأقدام فريق الطوارئ وهم يجرون مسرعين نحو الغرفة ، وعندما التفتت ثانية شهقت بذعر وهي تصيح :

- أين اختفت السيدة ؟! أين هي ؟

مضت دقائق بطيئة جاهد فيها الفريق ببسالة حتى استطاعوا إعادة نبض المريضة إلى طبيعته ، وغادروا الغرفة تاركين المريضة تنام في هدوء رغم شحوبها الظاهر وعادت فاتن إلى طاولة الاستقبال وهي ترتجف :

- إذن لم تكن أمل واهمة ؟ هناك سيدة مجهولة تتخطى كل الحواجز لتصل إلى المريضة في الغرفة (١٣) فمن هي ؟!! وما علاقتها بالمريضة ؟!!!



المشهد الخامس

جلس عماد وفاتن متقابلين على طاولة في مطعم هادئ اعتادا اللقاء فيه ، وبدت فاتن متوترة وهي تفرك يديها بعصبية بالغة .

ابتسم عماد ثم دنا منها ومد يده ليحتضن يدها بقوة وهو يهمس لها بحنان بالغ:-

- حبيبتي - صدقيني دعينا نتحقق من الأمر ولابد أن نكشف سويًا لغز هذه السيدة

تلفتت فاتن حولها بحذر وذعر شديدين وهي تردد بصوت متحشرج :

- أنت لم تشاهد هذه السيدة يا عماد - إنّ شكلها مرعب وغريب ولونها شاحب - ونظراتها - نظراتها حادة - صدقني لقد بدت وكأنها قادمة من عالم الأموات .

ردّ عماد بتهكم واضح وهو يغطي فمه بيده حتى لا تنطلق منها ضحكة مجلجلة :

- أموات ؟ إلى أين وصل بك الخيال ؟!! أنتن النساء تبالغن كثيرًا في مخاوفكن وردود أفعالكن - حتما هي نزيلة إحدى الأقسام في المستشفى --- وربما تمت بصلة لها وجاءت للاطمئنان عليها .

تنفست فاتن بعمق وأغمضت عينيها وهي تهمس :

- ليت الامر كان كذلك لشعرت ببعض الراحة .

اقترب عماد منها وهو يهمس بحب ظاهر :

- يبدو أن أمر هذه السيدة ستنسيك قضيتنا نحن ؟--- حبيبتي متى نجد حلاً لمشكلتنا نحن ؟

ابتعدت عنه فاتن بدلال وهي تهمس :

- أوه يا عماد - لا تحاول الخلط بين الأمور ، لقد جندت كل أفراد



عائلتي للبحث عن شقة تتناسب مع ميزانيتنا المحدودة – عليك فقط التحلي بالصبر .

– لا استطيع يا فاتن – فأنا انتظر بفارغ الصبر أن يجمعنا سقف واحد – لماذا لا تقبلين أن نتزوج ونسكن مع عائلتي – أنهم يحبونك كثيرًا .

– وأنا أحبهم يا عماد – ولكني أريد أن استقل بحياتي بعيدًا عن أهلك وأهلي ألم نتفق على ذلك منذ البداية ؟

– حسنًا – حسنًا أمري إلى الله .

– أه ––– نسيت أن أخبرك أن حالة المريضة في الغرفة (١٣) حرجة للغاية ويخشى الأطباء أن تطول فترة غيبوبتها كثيرًا.

– هل ما زالت تعتمد على أجهزة التنفس الاصطناعي .

–نعم––– وقد لا تستطيع العيش بدونها مجددًا إلا بمعجزة ، وقد يضطر الاطباء لإجراء عملية أخرى خطيرة لها بعد أخذ موافقة أسرتها

– ياللمسكينة ––– ومتى سيقررون إجراء مثل هذه العملية ؟

– في غضون أسابيع ––– هذا يعتمد على مدى تقدّم حالتها.

هز عماد رأسه بأسى ثم نظر إلى ساعته هامسًا :

– حبيبتي – علينا الانصراف ––– فموعد مناوبتنا قد اقترب .

سارا متلاصقين وهي تحاول الابتعاد عنه خجلاً من الجالسين في المطعم ، فأمسك عماد بيدها متعمدًا وهو يهمس :

– حتى هنا تمنعينني من ممارسة حقوقي .

– حقوقك – هيا قبل أن تطالب بالبقية الباقية منها .

– يا ريت .

– عماد .

همست بدلال وهي تحث خطاها نحو السيارة .



المشهد السادس

جلس زوج المريضة واجمًا يحدّق في الأرض ، بينما ارتفع نحيب ابنتيه ناهد وسلوى .

فرك الطبيب يديه بعصبية وهو يواصل حديثه:

- صدقوني - القرار صعب بل يبدو غير إنساني فهي أمكم ولكنها في عداد الموتى لولا أجهزة التنفس الاصطناعي . صحيح العملية خطيرة ونسبة نجاحها جدًا ضئيلة ولكنها أملنا الوحيد ، وفي أسوأ الحالات لن تضيف شيئًا إلى سوء حالة أمكم - والقرار لكم إن أردتم أن تبقوها كما هيٍ ولكنها قد تظل في غيبوبة لسنوات .

التفت الأب إلى ابنه سالم قائلاً :

- تحدّث يا بني ـــ ما رأيك أنت ؟ فأنت لم تنطق بحرف منذ وصولنا .

ابتلع سالم ريقه بصعوبة وهو يحاول جاهدًا أن يتحكم في مشاعره ثم تحدّث بصوت مبحوح :

- القرار لك يا والدي - لقد تعودنا أن لا نخالف لك رأيًا .

- ولكنها أمكم - ولا يمكنني أن اتخذ هذا القرار الصعب بمفردي ـــ لا استطيع

ثم غطى وجهه بغترته وهو ينتحب بقوة فأحاط به أبناؤه وهم يبكون .

وقف الطبيب وهو يمسح دمعة تساقطت من عينيه وهو يتمتم بتأثر:

- اعذروني ـــ سأترككم لفترة ريثما تصلون إلى قرار .

أغلق الباب خلفه وهو يتنفس بعمق :

- ياله من موقف صعب - ليكن الله في عونهم .

ثم تقدم من الغرفة (١٣) حيث كانت فاتن تعيد ذراع المريضة بعد أن



قاست لها الضغط ، ابتسمت له بود وهي تتساءل :

– خير يا دكتور —— هل توصلت العائلة لقرار بشأن هذه المسكينة ؟

– لا أعلم يا فاتن —— لقد تركتهم لافسح لهم المجال لمناقشة الموضوع بحرية .

نظرت فاتن إلى المريضة التي بدت ساكنة دون حراك فيما عدا صدرها الذي كان يعلو ويهبط بتأثير جهاز التنفس الاصطناعي فهمست بألم :

– لو كان الامر بيدي لما ترددت لحظة من إيقاف هذا الجهاز لأنهي معاناتها.

لم تكد فاتن تنهي جملتها حتى هبت نسمة هواء حارة من باب الحمام ، وتحركت طاولة الأدوية مصدرة صريرًا مزعجًا .

التفتت فاتن إلى الطبيب في ذعر وهي تتساءل :

– ماذا حدث ؟ من أين جاءت هذه الرياح ؟ فالمكان مغلق .

هز الطبيب كتفيه وهو يرد بلا مبالاة :

– يبدو أن أحد العمال ترك إحدى النوافذ مفتوحة .

ثم نظر إلى ساعته واتجه صوب الباب وهو يوصي فاتن :

– عليك بمراقبة المريضة مراقبة دقيقة – وخاصة بعد توقف قلبها المفاجئ لمرتين منذ إجراء العملية لها —— أبلغيني بأي تطوّر في حالتها – إلى اللقاء .

تقدمت فاتن بعد انصراف الطبيب من المريضة بحذر وهي تتلفت حولها ، وفجاة انتفضت بقوة والتصقت بالجدار خلفها وهي تسد فمها لئلا تنطلق منها صرخة مدوية ، لقد كانت السيدة الغريبة تقف قرب باب الحمام والشرر يتطاير من عينيها وهي تشير بأصبعها مهددة ثم تشير إلى جهاز التنفس.

ابتلعت فاتن ريقها بصعوبة قبل أن تنطق بصوت خافت :



- لم أكن جادة بشأن نزع الأجهزة - صدقيني .
تراجعت السيدة صوب الباب وهي ما تزال تشير متوعدة حتى اختفت ، فأغمضت فاتن عينيها غير مصدقة - لقد لجت بأعجوبة .



المشهد السابع

ابتسمت فاتن بو د للسيدة التي وقفت أمامها وهي تقول لها :

– اطمئني يا سيدتي —— فأختك قد تجاوزت مرحلة الخطر فيما يشبه المعجزة —— إنها إرادة الله وحده أن تصحو من غيبوبتها قبل إجراء العملية بساعات – ولكن الطبيب لم يسمح بعد إلا بدخول شخصين في كل مرة ولدقائق فقط – أرجوكم لا حديث مؤثر ولا دموع – فالانفعال قد يودي بحياتها .

– اطمئني يا ابنتي – سنحاول جاهدين أن نتحكم في مشاعرنا – ولكن استحلفك بالله هل هي حقًا بخير ؟

– الحمد لله يا خالة —— لقد فتحت عينيها لدقائق هذا الصباح ولكنها تحتاج لفترة قبل أن تتمكن من الكلام .

– الحمد لله —— الحمد لله .

مسحت دموعها بتأثر ثم خاطبت سالم قائلة :

– هيا يا سامي —— لنطمئن على والدتك .

– هيا يا خالة —— هيا لقد اشتقت لأمي كثيرًا

أمسك سالم بيد خالته بحنان بالغ وهي تسير بخطوات متعبة بطيئة.

– عفوًا يا سيدتي—— هل تسمحين لي بسؤال ؟

عادت السيدة أدراجها وهي تنظر إليها بقلق ظاهر :

– خير – هل هناك أمر نسيت أن تخبرينا عنه فيما يتعلق بأختي؟؟

– لا —— اطمئني —— الموضوع لا يتعلق بها —— بل —— بل بقريبة لكم في المستشفى.

– قريبة !! لا أذكر أن لنا قريبة في المستشفى أليس كذلك يا سالم ؟



– فعلاً يا خالة .
– هي سيدة في الخمسين من عمرها ، نحيلة وترتدي ثيابًا بيضاء – لقد قامت بزيارة أختك مرات عديدة رغم قرار منع الزيارة .
ابتسمت السيدة بغموض وهي تتبادل النظرات مع سالم ثم سألت فاتن:
– هل تكلمت معك ؟
– لا – هي لا تتحدث مع أحد – وتبدو غريبة بعض الشيء اعذريني على تطفلي يا خالة – – ولكن هل تعرفينها ؟
تنهدت السيدة وأغمضت عينيها بحزن ظاهر قبل أن ترد :
– سليمة كانت بمثابة الأم الحنون لأختي – كانت على الدوام ملاكها الحارس
– تقولين كانت – ماذا تعنين بكانت ؟!!
–قد لا تصدقين كلامي ولكنها الحقيقة، فمن تتحدثين عنها هي سيدة من أقاربنا عطفت عليها أختي بعد أن طردها أولادها واعتبرتها لسنوات طويلة كأمها حتى انتقلت إلى رحمة الله منذ عشر سنوات.
تراجعت فاتن إلى الوراء وهي تهتف بفزع :
– تقولين ماتت من عشر سنوات .
– نعم لقد ماتت بعد صراع طويل مع السرطان ، لم تفارقها أختي خلالها للحظة .
– أوه —— آه —— هذا يفسر لي الكثير من الأمور الغامضة .
حركت فاتن رأسها كمن تلقت ضربة عنيفة لتوها :
– إذن لسنا لوحدنا ملائكة الرحمة في هذا العالم .
– حتمًا يا ابنتي فلله مخلوقات من الجن والأنس يأتمرون بأمره ولكل أمر يحدث في هذا الكون حكمة وهدف والأرواح علمها عند الله .



لم تخبر فاتن أحدًا بسر هذه السيدة ، وصادفتها بعد ذلك كثيرًا أثناء رعايتها بالمريضة وكانت تقف تراقبها بود ظاهر ثم تختفي ولما استعادت المريضة عافيتها عادت إلى بيتها مع أسرتها ، لمحت فاتن السيدة الغريبة وهي تسير خلفهم سعيدة حتى اختفوا عن ناظريها .



حب في الثلوج ..



((الفصل الأول))

كان المدرج يعج بالطلبة ، وقد بدأ الأستاذ محاضرته منذ دقائق ، فانهمكت مها في تدوين المحاضرة، ولكنها كانت تتوقف بين الحين والآخر لتترجم لصديقتها وفاء كلمة فاتتها بالانجليزية .

همست لها وفاء وهما تغادران المدرج :

- لا أدري ماذا كنت سأفعل بدونك يا مها ؟

- كنت سترسبين حتمًا ، فأنت والانجليزية عدوان لدودان .

قالتها ضاحكة ، فردت عليها وفاء بجدية غير معهودة عنها:

- صدقيني قلتها مرارًا لوالدي أن لا داعي لصرف الأموال عليّ دون طائل ، فلا رغبة حقيقية لديّ في دراسة الطب وخاصة في انجلترا التي لا أفقه كثيرًا في لغة أهلها ، ولكن ماذا تقولين في حب المظاهر لدى فئة معينة من الناس .

- لا عليك أنت تتقدمين كثيرًا عما قبل .

- الفضل لَك يا عبقرية .

دفعتها برفق من كتفها مداعبة وهما تغادران مبنى الجامعة وتتجهان إلى الكافيتريا . جلستا إلى الطاولة وبدأتا في تناول الطعام بسرعة ، فأمامهما ساعة قبل أن تبدأ المحاضرة التالية .

توقفت مها عن الأكل فجأة وقد تقلصت عضلات وجهها وأغمضت عينيها وهي تزفر بقوة .

- خير يا مها ، ما بك ؟!

تساءلت وفاء بقلق وقد بدا علَى وجهها خوف شديد ، فردت مها بصوت واهن وقد تصبب وجهها بقطرات عرق غزيرة :

- لا أدري منذ الصباح وأنا أعاني من نوبات مغص شديدة .



مرت دقائق قبل أن تعاود مها نوبة ألم أخرى ، فوضعت رأسها بين كفيها وهي تعض على شفتيها لتكتم صرخة ألم كادت تطلقها ، فسارعت وفاء إلى أستاذها في الطاولة المجاورة لهما ، وقد كان قد بدأ للتو في تناول وجبته وحاولت جاهدة أن تتذكر كلمات مناسبة لتشرح له ما تعانيه مها، فهمهمت في أسى :

– آه ــــ الآن أحتاج لكِ يا عبقرية ، سأحاول أن استرجع كل ما درسته في المدرسة لشرح حالتك للأستاذ .

جلس الأستاذ فترة فاغر الفم يحاول استيعاب ما تريد وفاء قوله ثم انتبه من خلال إشارات يدها المتكررة نحو مها إنها تعاني مشكلة ما ، فأسرع معها إلى مها وتحدّث معها للحظات وبعد أن جس نبضها أشار للنادل قائلاً:

– اطلب الإسعاف بسرعة ــــ الآنسة تعاني من التهاب الزائدة الدودية ويجب نقلها للمستشفى حالاً .

رافقتها وفاء وهي تحاول أن تبقى متماسكة رغم قلقها الشديد إلى حين خرجت من غرفة العمليات .

– عفوًا هل أنت عربية ؟

التفتت وفاء إلى محدثها فوجدته شابًا في مقتبل العمر ويضع سماعة طبيب حول عنقه وقد وضع شارة على صدره وعليها صورته وحاولت جاهدة قراءة اسمه (عبدالله السلمان) فابتسمت بود وهي تجيب:

– نعم نحن طالبتان من الخليج ، وقد جئنا معًا لدراسة الطب .

– أهلاً وسهلاً – وأنا أيضًا من الخليج وأعمل في هذه المستشفى منذ سنوات .

– صحيح ــــ هذه فرصة رائعة لاكتساب الخبرة .

ثم همهمت :

– واكتساب اللغة أيضًا ليتها تسنح لي .



– عفوًا هل قلتِ شيئ ؟

– لا

– كنت اتمنى أن تفيق مها من المخدر سريعًا لأطمئن عليها .

– آه – مها لقد كنت مع الفريق الطبي الذي أجرى لها العملية —— إنها فعلاً محظوظة فلقد أجروا لها العملية في الوقت المناسب.

– الحمدلله – لابد من إبلاغ أهلها .

– أظن أنه من الأفضل أن ننتظر أن تتحسن حالتها لتخبرهم بنفسها.

– فعلاً – أنت على حق .

– إذن سانصرف الآن وسأمر عليكما لاحقًا .

– شكرًا لاهتمامك وإلى اللقاء .

وقف للحظات يتأمل مها التي بدت كالأميرة النائمة وقد تناثرت خصلات شعرها على المخدة وكان صدرها يعلو ويهبط ببطء ، ندت عنها أنة خفيفة ثم تقلبت على جنبها فانعكست أشعة الشمس على وجهها الأسمر المستدير.

تأمله عبدالله بإعجاب ظاهر، وتمنى حينها لو أمكنه أن يرسم لها لوحة فنية.

انتبه فجأة على صوت الممرضة :

– دكتور عبدالله – إنهم يطلبونك في الجناح ١٢ .

– حاضر أنا قادم فورًا .



((الفصل الثاني))

فتحت مها عينيها ببطء ، وحاولت الجلوس وهي تتساءل بصوت واهن:

– أين أنا ؟ ماذا حدث ؟

ولكن يدًا قوية أعادتها إلى وضعية الاستلقاء :

– لا تحاولي النهوض – فما زال الجرح طريًا – تحتاجين إلى الراحة.

– عفوًا – من أنت ؟!

–أنا الدكتور عبدالله المشرف على علاجكِ——لقد كنتِ محظوظة واجتزت مرحلة الخطر والحمد لله .

– هل أنت عربي ؟

– نعم أنا من الخليج ، وأعمل في هذه المستشفى منذ سنوات كما أخبرت صديقتكِ وفاء .

– آه وفاء – أين هي ؟

– لقد أقنعتها بصعوبة أن تذهب إلى السكن لتبدل ملابسها وترتاح قليلاً – فهي لم تنم منذ البارحة ، ولم تقبل بالذهاب إلا عندما وعدتها أن اتولى رعايتك ريثما تعود

– شكرًا على لطفك .

– لا داعي للشكر —— فأنا متشوّق جدًا لكل ما يذكرني بالوطن – أكاد أنسى لغتنا العربية .

– وغيرك مستعد لدفع الكثير مقابل نسيانها وتعلّم الانجليزية .

– عفوًا ماذا قلتِ ؟

– لاشيئ – لاشيئ .



أطل وجه وفاء الباسم وهي تهتف بمرح واضح :

- عبقريتنا الحبيبة - هل أفقت أخيرًا ؟

ثم ألقت بنفسها تحتضنها بقوة وهي تمطرها بسيل من القبل :

- لقد كدت أموت من شدة خوفي عليكِ - ولولا مهارة الاطباء وعلى رأسهم الدكتور عبدالله لفقدت أعَز اخت وصديقة لي في لحظة .

مسحت مها دموعها وهي تنظر إلى الدكتور عبدالله بامتنان قائلة :

- فعلاً يا دكتور أنا ادين لك بحياتي ---- ولا أجد كلمات توفيك حقك من الشكر .

- لم أفعل سوى واجبي - وسأمر لاحقًا لاطمئن عليكِ .



((الفصل الثالث))

وقفت مها أمام نافذة غرفتها بالمستشفى تتأمل الشوارع والبيوت في الخارج وقد غطتها الثلوج ، سرت قشعريرة في جسدها ، فدست يديها المثلجتين في جيب ردائها الصوفي السميك لتستمد منه بعض الدفء ، بينما انهمكت وفاء في ترتيب بعض الملابس في الخزانة . دخل الدكتور عبدالله ليستعيد سماعته الطبية التي نسيها على الطاولة أثناء زيارته الصباحية لها ، فاشارت إليه وفاء أن يختبأ وهي تكتم ضحكة خبيثة قبل أن تبادر قائلة:

– صحيح – يا مها ما رأيكِ في الدكتور عبدالله ألا تجدينه جذابًا يستحق الإعجاب؟

أجابت مها وهي ماتزال تتأمل المنظر في الخارج ساهمة:

– فعلا – هو دكتور خلوق ومحبوب من الجميع في المستشفى وينتظره مستقبل باهر في مجال تخصصه كما أخبرتني الممرضات.

– يا سلام – يبدو أن الدكتور يهمكِ كثيرًا حتى تجري عنه كل هذه التحريات .

ثم غمزت بعينها للدكتور عبدالله قبل أن تواصل حديثها :

– إذن ما رأيكِ فيه كزوج ؟

التفتت مها فجأة مذعورة وهي تتساءل في حين سارع الدكتور عبدالله بالاختباء خلف باب الخزانة المفتوح :

– زوج ؟! ولمن ؟

– لكِ طبعًا .

تنهدت مها بعمق قبل أن ترد قائلة :



- لا أخفي عليك يا وفاء أنني وخلال الأيام القليلة الماضية أعجبت كثيرًا بشخصية الدكتور عبدالله ، لقد جذبني بنبل أخلاقه وطيبته وتواضعه في التعامل مع كل العاملين في المستشفى حتى نال ثقة الجميع واحترامهم ـــ معه أشعر بسعادة غريبة وبوجوده قربي أشعر بالأمان رغم أني لا أثق بأي شخص بسهولة كما تعلمين ولكن ـــ

- ولكن ماذا ؟

وهي تداري ضحكة مكتومة لمنظر الدكتور عبدالله وقد لصق وجهه بباب الخزانة المفتوح حتى لا تفوته كلمة من حديثها :

- بصراحة لا أجد لعاطفتي نحوه أي أمل فأنا ما زال أمامي سنوات طويلة قبل أن أنهي دراستي ، ولست متأكدة من أنه يبادلني هذه العاطفة أصلاً ، فربما هناك حبيبة ما تنتظره في الوطن .

- ولماذا لا تسأليني عن كل هذا شخصيًا ؟

قالها الدكتور عبدالله بعد أن أغلق باب الخزانة فجأة ، فقفزت مها إلى الوراء مذعورة وقد غطت فمها بكفها للحظات قبل أن تخفض رأسها في حياء ظاهر .

تقدّم منها الدكتور عبدالله بضع خطوات وهو يرمقها بنظرات والهة قبل أن يواصل حديثه :

- لقد خطفت قلبي يا مها منذ أن رأيتك ممددة على السرير في غرفة العمليات ، وزاد إعجابي بك بعد كل ما سمعته عنك وبما تقدمينه من مساعدة لوفاء وبقية زميلاتك المغتربات رغم مشاغلك الدراسية الكثيرة عن طيب خاطر ، أنتَ يا مها عملة نادرة في هذا الزمن ومن الصعب التفريط فيها بسهولة .

- أنا – أنا .



– لا داعي لأي حديث آخر كل ما أطلبه منك أن تعطيني عنوان أهلك حتى يتسنى لأهلي زيارتهم لطلب يدكَ منهم رسميًا .

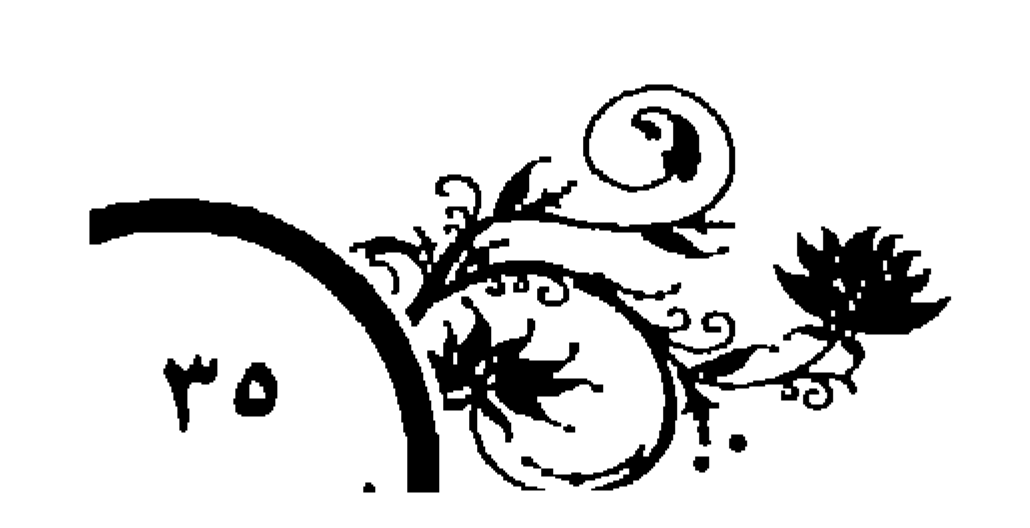
– ضَاع مستقبلي – وخسرت مترجمتي إلى الأَبد .

قالتها وفاء بطريقة مسرحية متقنة ، فانفجر الجميع بالضحك قبل أن يبادرها الدكتور مطمئنًا :

– اطمئني لم تخسري مترجمتك بل أصبح لديكِ مساعدان تحت أمرك .

– إذَن ضمنت النجاح ، ولن تذهب الاموال الطائلة التي يرسلها والدي لي كل شهر سدى .

تعالت ضحكاتهم عاليًا ، بينما التقت عينا مها والدكتور عبدالله في حب .





دهاليز من الماضي ..

أوقفت منيرة سيارتها أمام دكان صغيرتوسطه عجوز في السبعين من عمره، وقف يصف الخضروات على طاولة مهترئة بعناية ، بينما أمسك في يده الاخرى بفوطة يشير بها في غضب بين الحين والأخرى إلى جماعات من الذباب أعلنت عليه حربًا شعواء .

ابتسمت منيرة بود وهي تحييه مازحة :

– صباح الخير يا عم أحمد ، أما زلت أيها العجوز تبيع الخضروات ؟! يعطيك العافية .

وقف العم أحمد للحظات يرمقها بنظرات مذهولة ، وقد فغر فاهه ثم انتفض فجـاة عندما حامت ذبابة حول وجهه ثم عاد ينظر إليها وهو يتمتم :

– أهلاً يا بنيتي – من أنتِ ؟ لم أعرفكِ .

– أنا منيرة سالم يا عمي ابنة صديقكَ القديم يرحمه الله .

– منيرة !! آه أهلاً يا بنيتي كيف حالكِ ؟ وكيف حال أمكِ وأخوتكِ ؟ لقد مرّ دهر من الزمن لم نسمعَ عنكم منذ أن غادرتم الحي إلى بيتكم الجديد .

– الوالدة يرحمها الله لقد رحلت منذ سنوات يا عم أحمد لم تحتمل الحياة طويلاً بعد رحيل أبي ، اما أخوتي فهم بخير ، كيف حال أبناؤك ؟ هل يزورك منهم أحد ؟

نظر إليها مشدوهًا للحظات قبل أن يمسح بكم ثوبه دمعة ساخنة سالت على خده

– الله كريم يا بنيتي ——— الله كريم .

ثم عاد إلى عمله في صف الخضروات وهو يدندن بأغنية شعبية حزينة عن الأيام الخوالي التي مضت .

سارت منيرة وهي تشعر بغصة في حلقها



- ليت والدي كان حيًا —— لما تركته يعاني من قسوة الوحدة هكذا.

تقدمت بضع خطوات في الحي القديم ، ثم دلفت إلى ممر ضيق ، فتناهى إلى سمعها أصوات أطفال يمرحون في حوش أحد البيوت بينما كانت والدتهم تصيح بهم في غضب

يا شياطين ——— ماذا فعلتم بأخيكم الصغير ؟ ——— سلوم إياك ورمي الكرة صوب سيارة جارنا ثانية .

ابتسمت منيرة بحنان وهي تتذكر طفولتها في هذا الحي ، وأغمضت عينيها بنشوة وهي تشم رائحة بخور عطرة من إحدى النوافذ القديمة المفتوحة ، بينما ارتفع صوت الهاوند الرتيب من نافذة مطبخ قريب .

– آه هاهو بيتنا القديم .

تقدمت بخطوات بطيئة وهي تتأمل شرفاته القديمة وقد اهترأت عوارضها الخشبية وتساقط معظم أجزائها ، بينما أطلت شقوق عريضة من جدرانها.

أخرجت المفتاح من حقيبتها وأدارته في فتحة الباب ثم دفعته بقوة فأصدر صريرًا مزعجًا اقشعر له بدنها وذكّرها بأفلام الرعب التي كانت تعشق مشاهدتها منذ طفولتها

تقدمت وهي تدير رأسها تتأمل ثنايا الدهليز الذي بدا قديمًا تلفه ظلمة موحشة وقد انتشرت خيوط العنكبوت في جميع أرجائه .

وقفت للحظات تتذكر المرات التي وقفت فيه تختلس النظر إلى والدتها وهي منهمكة في عملها في المطبخ حتى إذا سنحت الفرصة تسللت على حين غفلة منها إلى الحمام لتغسل أطنان الوحل التي تجمعت حول قدميها العاريتين وثيابها وكثيرًا ما طاردها صوتها الغاضب حين تفشل في مغافلتها :

– منور – هل عدت للعب بالطين رغم تحذيري



المستمر لك ـــــ انتظري حتى يعود والدك من عمله .
تدحرجت دمعة ساخنة من عينيها وهي تتذكر والدتها التي لم تنفذ قط تهديدها بإبلاغ والدها بأي حماقة كانت تقوم بها في طفولتها ،لأنها كانت تشفق عليها من عقاب والدها الصارم .
لكم كانت أمًا حنونة طيبة لم تدخر أي جهد في رعايتهم وتربيتهم .
كانت سيدة عظيمة رغم أنها لم تتلق أي تعليم في حياتها ، ولكنها كانت تعشق الاستماع لنشرات الأخبار ، وتتحمس كثيرًا وهي تناقش ما سمعتــه مع جاراتهــا اللاتي تعودن الاجتماع في بيتهم في (الضحى العود) ، وكانت الجارات يلجأن لها حين يلم عارض صحي بأطفالهن ، وتتولى خرم آذان الفتيات منهم وتتذكر أنها كانت تتولى تسجيل أطفالهن بالنيابة عنهن حين يصل الطفل منهم إلى سن الالتحاق بالمدرسة .
فتحت باب غرفتها ثم اتجهت إلى النافذة التي تتوسطه ، نظرت بلهفة إلى الخارج:
- عائشة ـــــ صديقة طفولتي ـــــ ليتني أراها كما كانت في الماضي تقف لي في النافذة المقابلة وهي تلوّح لي قائلة:
- منور ـــــ لقد خرجت الحيزبون زوجة أبي ـــــ هيا لننضم للفتيات في لعبهن .
تذكرت حين صحت من نومها في أحد الايام على أصوات وجلبة صادرة من بيتهم فأطلت من النافذة لتجد رجالاً يثبتون زينة وسعف نخيل على جدران بيتهم وعند بابهم وتناهى إلى سمعها بعض الزغاريد ، فخرجت من غرفتها وهي تفرك عينيها لتجد أمها وقد افترشت الأرض وقد وضعت كفيها حول رأسها تنتحب في صمت بينما تحلقت بعض الجارات حولها يحاولن التخفيف عنها .
تجمدت منيرة في مكانها وهي تتوقع أن أمرًا رهيبًا قد وقع لأسرتها:



- لقد حاولت المستحيل مع زوجة أبيها لأثنيها عن قرار تزويجها بدون فائدة ، لقد اتفقت مع هذا العريس المتصابي وقبضت الثمن، حسبي الله ونعم الوكيل .

- هوني على نفسك يا أم منيرة لقد فعلت ما بوسعك لوقف هذه الزيجة المشئومة ولكنها كانت تتمنى الخلاص منها منذ أول لحظة وطأت فيها بيتهم ، الجميع يعلم بذلك .

- ولكنني توسلت لها كثيرًا وقلت لها أن عائشة أمانة عندي وقد أقسمت لوالدتها وهي على فراش الموت برعايتها مع ابنتي منور، لقد نشأت الطفلتان معًا كالاختين حتى أنني عرضت عليها أن تنتقل عائشة للعيش معنا هنا ليخلو لها البيت كما تريد .

- وهل تريدينها أن تتخلى بسهولة عن المهر الضخم والهدايا الفاخرة التي قدمها عريس الغفلة هذا بسهولة .

- ولكنه تجاوز السبعين من عمره ولديه في بلده ثلاث زوجات وجيوش من الأولاد وحده الله يعلم عددهم وعائشة لم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها ——— هذا حرام .

تساءلت جارة بحزن :

- ماذا عن والدها ؟ ألم يحاول منع هذه الجريمة في حق ابنته ؟

مطت جارة أخرى شفتيها في امتعاض واضح وهي تدمدم :

- آه —— ماذا تقولين يا شيخة ومنذ متى كان لهذا المسكين رأي في بيته منذ تزوجها

تراجعت منيرة بضع خطوات إلى الوراء قبل أن تنسحب بهدوء إلى غرفتها ثم وقفت تنادي بصوت منخفض :

- عائشة - عائشة .

مرت لحظات ثقيلة كالدهر قبل أن يطل عليها وجه عائشة المصفر



وقد انتكش شعرها وكأنها قد خرجت للتو من معركة حامية الوطيس ، كانت عيناها محمرتان وكأنها قد قضت ساعات وساعات في بكاء حار :

– عائشة ما بك ؟ اجيبيني ؟

– لقد توسلت للحيزبون كثيرًا لتوقف بيعي لهذا العجوز ، بكيت وقبلت قدميها ورأسها لتوقف هذه الزيجة دون فائدة .

ارتفع صوت زوجة أبيها الهادر يناديها ، فتراجعت إلى الخلف وهي تنظر نحوها بنظرات زائغة وقد لمعت عيناها بالدموع .

وكان هذه آخر مرة تراها ، فقد أنهت المسكينة حياتها بابتلاع علبة حبوب وجدتها وأخفتها على حين غفلة من أهلها لتنهي بذلك حياتها التي لم تبدأ بعد.

أغمضت عينيها بحزن وهي تتذكرها ، ثم تراجعت بذعر حين أطل وجه رجل آسيوي أسمر ، وقف بكل وقاحة يستعرض جسده النصف العاري ثم بصق على الأرض بينما تعالت أصوات موسيقى عالية من الداخل .

– لم يعد لي من الماضي سوى الذكريات .

أسرعت إلى حقيبتها التي جمعت فيها كل ما تبقى لها في غرفتها من متعلقات قبل أن تسلّم البيت للمالك الجديد ، ثم انطلقت عبر الأزقة لا تلوي على شيء .





أشـــواك
في القلب ..

انتفضت سعاد مذعورة ، واهتزت سماعة الهاتف في يدها المرتعشة وهي تستمع إلى صوته الهادر ، وكلماته الغاضبة التي كانت تنطلق كالرصاص :

- هل اتكلم باللاتينية ؟ توقفي عن ملاحقتي باتصالاتك الهاتفية —— لست طفلاً يحتاج إلى رعاية —— أنا رجل —— هل تفهمين رجل - صدقيني أحيانًا أفكر في كسر هذا الجهاز اللعين لاتخلص من حصارك المميت لي —— سعاد بصراحة عواطفك تخنقني بل ستوصلني حتمًا للجنون .

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تهمس بصوت مبحوح :

- أردت فقط الاطمئنان عليك —— فقد كنت بالأمس محمومًا وتعاني من نوبة سعال قوية

- أنا بخير — ولا داعي للقلق - أنا فقط مشغول وهذه المكالمات تعطلني - لديّ اليوم مواعيد وضيوف انتظرهم خلال دقائق - وعليّ تجهيز بعض الأوراق - عمومًا شكرًا على سؤالك - أراك قريبًا -

أمسكت سعاد السماعة للحظات بعد أن أقفل الخط مذهولة ثم أعادت السماعة بحزن واضح ، تدحرجت دمعة ساخنة على خدها ، وتبعتها أخريات فمسحتها في عصبية ثم استلقت على فراشها .

- تبًا لصنف الرجال —— كلهم وحوش أنانيون ولا يقدرون مشاعرنا نحن النساء .

سحبت الغطاء على جسدها بعد أن فكت شعرها الذي السدل كشلالات من حرير على المخدة ، تململت في عصبية تحاول جاهدة أن تغفو ولو للحظات همست برجاء :



(لكم اتمنى أن أنساه) ، أغمضت عينيها بقوة ، بينما تصلبت راحتيها على حافة السرير .

قفزت فجأة متجهة صوب الحمام ، وألقت بثيابها جانبًا ثم وقفت مستسلمة لسيل من الماء الدافئ وهي مغمضة العينين :

(لكم أشتاق لك الآن ــــ أشعر أن حياتي بدونك فارغة)

أبعدت خصلات من شعرها المبلل عن عينيها وهي تلف رداء الحمام حول جسدها ثم جلست بتكاسل على السرير وهي تتفرس في وجهها خلال المرآة .

بدا وجهها شاحبًا ، بينما أطل حزن دفين في عينيها الواسعتين ، فتنهدت بعمق ثم استلقت على السرير وهي تضم الوسادة إلى صدرها بعنف .

انتفضت فجأة على صوت هاتفها المحمول :

– ألو – أهلاً منال ــــ

– أهلاً – ألم تسمعي آخر أخبار الكاتب المعروف عماد سالم؟؟؟

انتفضت بقوة ، وكادت السماعة تسقط من يدها ثم تمالكت نفسها بصعوبة وهي تتظاهر بعدم الاكتراث :

– خير – أعلم أنك تسمعين كل شاردة وواردة ولا يفوتك شيئ عن عالم الفنانين .

– طبعًا – يقولون أنه سعيد جدًا بآخر انتصاراته النسائيةـــــ ويفاخر أمام أقرانه أنه نجح في ايقاع إحدى الحسناوات من إحدى الأسر الثرية المعروفة في شباكه –

ابتلعت سعاد ريقها بصعوبة وقد تسارعت دقات قلبها وهي تستفسر بحذر :

– وهل أخبرهم من تكون ؟



- لم يعلـم الجميـع باسمها بعد ـــــفقط قلة من أصدقائـه المقربين - ولكنهم وعدهم أن يكشف عنها هذا المساء حين يدعوها إلى أحد المطاعم المعروفة ليروها معه بأنفسهم يقولون أنها فتاة جادة وصعبة المراس - ولم يتمكن أحد قبله من التحدث معها وقد قبل الرهان للإيقاع بها فهو كما تعلمين كاتب معروف ووسيم تتهافت الفتيات عليه ولكنه يهوى هذا الصنف الصعب المراس من الفتيات - يجد في ذلك متعته .

اعتدلت سعاد جالسة على حافة السرير ، وقد تصبب وجهها عرقًا .

- سعاد ــــ هل نمت ؟؟

- لا أنا معك - ولكن كيف عرفت بكل هذا ؟

- لي مصادري الخاصة ـــ فعماد كما تعلمين تحيطه عيون الفتيات أينما حلّ - ويتناقلن أخباره في كل مجالسهن .

- صحيح .

- عمومًا سأوافيك ببقية الأخبار لاحقًا - إلى اللقاء - عليّ الاتصال ببقية الفتيات

استلقت سعاد على فراشها غير مصدقـة

(كنت مجرد رهان ـــــ كل هذه العواطف الجياشة التي غمرني بها ــــ وكل كلمات الحب والاعجاب - كانت كلها كذب - ياله من محتال) حركت رأسها بعصبية ثم دفنت رأسها في المخدة لتمنع صرخة ألم حادة كادت تفلت منها .

نظرت إلى السقف ببلاهة وهي تتذكر :

- ألو - آنسة سعاد ــــ أنا عماد سالم .

- آه - عماد سالم الكاتب المعروف - أهلاً - بصراحة أنا من المتابعات لكل كتاباتك .



- لي الشرف في ذلك يا آنسة - ولكني أيَضًا أتابع منذ فترة ما تنشرينه في الجريدة من أشعار لذا اتصلت بالمحرر وحصلت منه على رقمك لأنقل لك إعجابي الشديد بما تكتبينه .

مضت ثواني بدت لها كالدهر وهي تبحث عن كلمة مناسبة ترد بها عليه :

- ألو - آنسة سعاد - هل ما زلت معي على الخط ؟

- عفوًا —— أقصد - أجل أجل أنا معك وأشكرك كثيرًا على هذه المجاملة الرقيقة - أنت لا تعلم كم يعني لي كلامك هذا.-ولكني بصراحة متوترة ومضطربة بعض الشيء - لم أعتد التحدّث مع رجل غريب من قبل .

ضحك عماد ضحكة مجلجلة قبل أن يرد بود ظاهر :

-لا داعي للاعتذار —— ولقد سعدت بالتحدّث معك-لذا يسرني دعوتك لحضور أمسية شعرية مساء الغد - سأكون العريف فيها وسيعرض فيها نخبة من الشعراء الشباب أحدث أشعارهم .

- لا أعرف —— فأنا لا أحب التواجد في مثل هذه التجمعات —— أشعر فيها أني غريبة .

- لا تخافي - سأكون فيها معك —— فقط عليك أن تثقي أكثر بنفسك إذا أردت لشعرك الانتشار فأنت شاعرة موهوبة - عليك الاختلاط والتعرّف على غيرك من الشعراء .

- لا أدري أستاذ عماد —— لا أعتقد أنني سأتمكن من الحضور —— أعذرني

- لن أقبل أي أعذار سأنتظرك أمام مدخل جمعية الشعراء الساعة الثامنة مساءً اتفقنا .

- أستاذ - ألو - ألو .

لقد تعمد أن يغلق الخط دون أن يعطيها أي فرصة للاعتذار .



وفي مساء اليوم التالي ترجلت سعاد من سيارتها وهي تشعر برجفة تسري في جسدها – همت أكثر من مرة أن تعود أدراجها ولكنها تذكرت كلماته الصارمة :

– لن أقبل أي أعذار – أراك الساعة الثامنة .

تقدمت بخطوات متعثرة نحو المبنى ، وعند المدخل وقف شاب وسيم يرتدي بذلة رمادية كانت منسجمة تمامًا مع بشرته السمراء ، وقد صفف شعره بطريقة نجوم السينما ، وما أن رآها حتى بادرها بابتسامة ساحرة قائلاً :

– كدت أفقد الأمل في قدومك .

تسمرت في مكانها لوهلة ، فلم تكن واثقة بأنه سيتعرف عليها بهذه السهولة

– صدقني – لولا إصرارك الغريب هذا لما تجرأت على الحضور

– لا عليك – ستعتادين على الأمر بمرور الوقت – والآن أسرعي فالأمسية توشك أن تبدأ —— هيا .

أمسك بيدها بقوة وهو يدفعها برفق أمامه في جرأة لم تعتدها ، ودخلا سويًا إلى المبنى ، وقد لاحظت حينها إنه كان يغمز بعينه لبعض رفاقه الذين جلسوا في المقاعد الامامية .

انزوت في المقعد الذي أجلسها عماد فيه ، وسرعان ما انشغل عنها بقية الأمسية بمعجباته اللاتي أحطن به من كل صوب ، ولم يشعر بها عندما اندست وسط الجموع المغادرة بعد انتهاء الأمسية .

مرت أيام قبل أن يعاود الاتصال بها قائلاً :

– أهلاً سعاد —— أعذريني فقد انشغلت في الأمسية كثيرًا ولم يتسن لي سؤالك عن رأيك فيها —— هل قضيت وقتًا ممتعًا ؟

– كانت أمسية جميلة – لقد استمتعت فيها كثيرًا .

– جيد – ألم اخبرك أنك تحتاجين الاختلاط أكثر بمن حولك ؟



عمومًا أنا اتصلت بك اليوم لأخبرك أن صديقي عبدالله وهو ناشر معروف يود مقابلتك والاستماع إلى أشعارك ، فهو يفكر حاليًا بإصدار كتيب يحوي نتاجات مشتركة لمجموعة من الشعراء الشباب ، وقد رشحتك لتكوني من ضمنهم .-انتظرك في مكتبي الساعة الرابعة عصرًا .

– لا أدري – أقصد

– لا – لا مجال للاعتذار فهذه فرصتك الذهبية لتنالي الشهرة فلا تضيعيها – إلى اللقاء .

لاحظت سعاد أنهما خلال جلوسهما معها تبادلا نظرات باسمة وغامضة مرات عديدة ، فسرتها حينها أنهما معجبان بما تعرضه عليهما من شعر. –يا لها من غبية .

سرحت وهي تحاول اكتشاف أبعاد هذه اللعبة الخبيثة ، استلقت على السرير تحاول جاهدة النوم ، وتقلبت مرارًا في ضيق ، وفجأة أبعدت الغطاء عنها بعنف ، ووقفت عند النافذة وهي تدق عليها بقبضة يدها بحنق :

– لا بد من ايجاد طريقة لتلقين هذا المغرور درسًا لن ينساه ، لا بد أن يفهم أن اللعب بمشاعر وعواطف الفتيات جريمة لا تغتفر .

لمحت من خلال النافذة شابًا وفتاة يسيران متشابكي الأيدي فهمهمت بحزن :

– ياللمسكينة – لا بد أنه يلعب معها نفس اللعبة – ياللرجال .

توقفت عن الكلام بعد أن شعرت بغصة في حلقها ، فألقت بنفسها على السرير ودفنت وجهها في الوسادة وراحت في نوبة بكاء عنيفة .

مضت ساعات وهي لا تقوى على الحركة ، وبقيت تحملق في السقف بعينين محمرتين . رن هاتفها المحمول ، فقامت متثاقلة إليه :–

– ألو – مرحبًا .



- مساء الورد يا سعاد .
- من !! ها عماد - مساء الخير.
شعرت للحظات أنها تود أن تصرخ به بأعلى صوتها ، أن تنعته بأبشع السباب ثم تغلق الخط ، ولكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة ، فقد قررت أن تكمل معه فصول اللعبة حتى النهاية فاستمعت إلى حديثه معها في تثاقل :
- آسف عزيزتي ---- كنت عصبيًا معك في الفترة الأخيرة - لقد كنت أعاني من بعض المشاكل في العمل - عمومًا أريد أن أعوضك - ما رأيك أن نتعشى سويًا الليلة في مطعمك المفضل سأمر عليك الساعة الثامنة مساءً
- لا - لاداعي لأن تمرعليّ ----- سأكون هناك في الموعد المحدد.
فكرت للحظات ، ثم ابتسمت بخبث وهي تجري مكالمة على هاتفها المحمول.
في الموعد المحدد جلس عماد على طاولة في منتصف القاعة في المطعم المحدد بينما انزوى رفاقه على طاولة جانبية يراقبونه عن كثب وهم يتغامزون ويتحدثون ويتبادلون ضحكات خبيثة مكتومة .
تبادلوا نظرات قلقة مع عماد وهم يشيرون إلى ساعاتهم ، فأشار إليهم وهو يبتسم إبتسامة واثقة ، ثم نظر صوب إحدى الفتيات التي جلست في طاولة مقابلة من صديقاتها ، وبادلها بابتسامة ساحرة وهو يشير لها برأسه بتعال:
- أهلاً وسهلا - وأنا سعيد بالتعرف إليكن ---- خير - آه مجموعتي الجديدة ستصدر قريبًا .
اقتربت منه الفتاة وهي تتمايل بدلال واضح قائلة :



- هل تسمح أن توقع لي ـــ أستاذ عماد .
- بكل سرور - بكل سرور .
ثم نظر إلى رفاقه وهو يبتسم إبتسامة خبيثة ، بينما كانوا يتغامزون بينهم في حسد :
- انظر إليه - ياله من محظوظ - الحسناوات يلاحقنه أينما ذهب.
نظر عماد إلى ساعته بقلق ، ثم ابتسم بثقة وهو يلمح سعاد مقبلة من بعيد، فعدّل من هندامه ووقف محييًا لها بابتسامة عريضة وهو يغمز لرفاقه. ولكنه جمد في مكانه فقد دخلت سعاد القاعة وهي تتأبط ذراع شاب وسيم تبدو عليه إمارات الثراء والوجاهة سارت بجواره بدلال وتعمدت حين اقتربت من طاولة عماد أن تهمس له بحديث هامس ناعم تتخلله بعض الضحكات .
تعمدت أن تتحاشى النظر إلى عماد وتجاوزاه ليجلسا إلى طاولة قريبة من النافذة بينما جلس عماد منكس الرأس وهو يتحاشى النظر إلى رفاقه الذين حاولوا جاهدين أن لا تصله أصوات حديثهم الساخر وضحكاتهم المكتومة .
بعد لحظات تظاهرت سعاد أنها لمحت عماد للتو فأشارت له محيية في ود ظاهر فلم يجد عماد بداً من التقدّم نحوها و حياها وهو يرمق مرافقها بحقد ظاهر تعمدت سعاد رفع صوتها قائلة :
- أهلا- أستاذ عماد - فرصة رائعة أن أقابلك هنا - لم أرك منذ أن تقابلنا في الامسية الشعرية عن طريق الصدفة .
رمقها عماد باستغراب شديد ، ثم نقل بصره إلى مرافقها ، لاحظته فاتن فأضافت:
- أه - نسيت أن أعرفك على رجل الأعمال المعروف ابن عمي سامي محمود -



ثم ضغطت على أسنانها بتشفي وهي تضيف بعد أن نظرت إلى أصحابه بطرف خفي:

– خطيبي .

تراجع عماد بضع خطوات إلى الخلف ثم تمتم بصوت متحشرج :

– مبروك ــــ مبروك هذه مفاجأة ــــ مذهلة .

– بالفعل هذه مفاجأة مذهلة تعمدت إخفاؤها عن الكل حتى يحين الوقت المناسب لإعلانها – وقد حانت هذه الفرصة .

رمقته بنظرة انتصار ، وقد لمعت عيناها بدموع ساخنة متحجرة وغادرت برفقة خطيبها المزعوم بعد انتهائهما من تناول العشاء وهي تهمس بأسى داخلها : (وداعًا يا حبي المزعوم ــــ وداعًا يا أكبر كذبة في حياتي) بينما انسل عماد خلفهما مغادرًا القاعة يتبعه أصدقاؤه وهم يتهامسون ويضحكون بسخرية .

القرار الأخير..



المشهد الأول

فتحت رجاء باب سيارتها ، ونظرت إلى ما حولها بتوجس وقلق ، ثم أمسكت بيد طفلها راشد وسارت مسرعة نحو مبنى الجوازات وهي تستحثه الخطى :

– أسرع يا راشد لنلحق بالموظف قبل أن ينصرف .

– ماما – الجو حار – وحذائي غير مربوط .

– أعلم يا حبيبي – ولكنني مضطرة للإسراع – هيا .

كان الجو حارًا والناس من حولها يتسابقون للوصول إلى ما يحتمون به من الشمس الحارقة .

وقفت للحظات لتمسح قطرات العرق عن وجه طفلها ، ثم دلفت إلى مبنى الجوازات سارت بخطى سريعة وهي تتابع اللافتات ببصرها حتى وصلت إلى لافتة (تأشيرة الخدم) فاتجهت إليه .

وقفت في نهاية الصف وهي تحاول جاهدة رؤية الموظف في أوله ، ثم نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط وهمست :

– لن أصل إليه إلا بعد الموعد المحدد – ضاع اليوم أيضًا .

وقفت متململة حوالي الساعة وراشد يجر عباءتها بضيق :

– ماما – متى ننتهي ـــــ أنا جائع .

– انتظر يا حبيبي سيحين دورنا بعد قليل .

نظرت ثانية إلى الساعة ثم زفرت بضيق .

– من فضلك – لو سمحت .

نظرت رجاء باستغراب إلى مصدر الصوت وأجابت :

– من !! أنا ؟!

أجابها الموظف في المكتب المقابل :



- نعم - تعالي لو سمحت .

تقدمت نحوه بخطوات مرتبكة .

- ألاحظ أنك منذ أيام تحضرين يوميًا وتقفين في الصف ثم تعودين في الغد مجددًا هل هناك مشكلة ما في أوراقك ؟

- بصراحة لقد قدمت أوراق الخادمة منذ شهر ، وفي كل يوم يعتذرون بحجج مختلفة لإنهاء إجراءاتها ، ثم أخبروني منذ أسبوع أن أوراقي قد وصلت لهذا القسم وإلى الآن لم أستطع إنهاء معاملة تخليصها.

- متأسف لتعطيلك - تعرفين في موسم الإجازات تتزايد طلبات جلب الخدم وتتراكم علينا المعاملات —— يمكنك أن ترسلي زوجك لاستكمال الإجراءات بدلاً من أن تتعرضي لكل هذه المضايقات والعناء في هذا الجو الحار .

- زوجي —— إنه مسافر .

- والصغير ما اسمك يا حبيبي ؟

- راشد - أنا جائع وأريد العودة للمنزل .

- حالاً يا حبيبي —— على العموم يمكنك ترك أوراق المعاملة ورقم هاتفك وسأقوم بالاتصال بك شخصيًا حالما تنتهي .

أملت عليه رجاء البيانات المطلوبة وشكرته ، ثم انسحبت بصعوبة من وسط الحشود وعادت لتلقي بنفسها منهكة في سيارتها .



المشهد الثاني

كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة العاشرة صباحًا ، وكانت رجاء منهمكة في نشر الملابس عندما رنّ الهاتف :

– ألو السيدة رجاء ؟

– نعم أنا رجاء —— من المتحدث ؟

– أنا سالم موظف الجوازات – وقد طلبتك من أجل أمر مهم .

– خير – ماهو ؟

– نحتاج إلى توقيع الكفيل لاستكمال الإجراءات – أرجو أن يحضر زوجك للتوقيع في أقرب فرصة حالما يعود من السفر.

– بصراحة – زوجي ليس الكفيل – بل هو زوج أختي فأنا منفصلة عن زوجي منذ أربعة أعوام تقريبًا .

– آسف – لم اقصد التطفل – عمومًا يمكن لزوج أختك أن يأتي حالما يستطيع .

– حاضر – وأشكرك كثيرًا .

– لا شكر على واجب —— فأنت أخت عزيزة ويسعدني خدمتك في أي وقت – مع السلامة –

– مع السلامة .



المشهد الثالث

فتحت رجاء الباب وهي تلهث فالشقة في الطابق الرابع ، ووضعت الأكياس على الطاولة ثم جرت مسرعة للرد على الهاتف :

– ألو ––– السلام عليكم .

– وعليكم السلام يا أخت رجاء – أنا سالم – أخيرًا انتهت الإجراءات ويمكنك استلام أوراقك في صباح الغد .

– صحيح – أنا شاكرة لك وغير مصدقة أنني أخيرًا انتهيت من هذه الأوراق .

– يبدو أنك متعبة كثيرًا دون خادمة ؟

جلست متهالكة على أقرب كرسي وهي تواصل حديثها معه :

– لا تتصور يا أخ سالم ما أعانيه من مشقة ما بين طلبات البيت والأطفال وعملي كمدرسة – لا أكاد أجد وقتًا حتى لزيارة أهلي.

– كان الله في عونك – وأنا كما قلت لك سابقًا يسعدني مساعدتك في أي شيء .

– شكرًا لك .

– ولكن هل تسمحين لي بالاتصال بك من حين لآخر للاطمئنان عليك وعلى الأولاد .

فكرت باستغراب لهذا الطلب المفاجئ ثم أجابت بتلعثم :

– خير – إنشاء الله خير – مع السلامة .

وقفت لبرهة قرب الهاتف تفكر ، ثم عادت إلى حمل الأكياس وهي تمتم :

– إنها مجرد دعوة يقولها الناس فيما بينهم لمجرد المجاملة .



المشهد الرابع

مضت أسابيع انهمكت فيها رجاء باستكمال الإجراءات حتى وصلت الخادمة ، فعادت رجاء إلى شيء من هدوئها المعتاد ، وعادت لممارسة هوايتها المفضلة (الرسم على الزجاج) .

كانت منهمكة في رسم فراشة ذات ألوان بديعة على قطعة زجاجية عندما رن الهاتف :

– ألو – السلام عليكم .

– ألو – السلام عليكم يا سيدة رجاء —— أنا سالم .

فغرت فمها مشدوهة وقد تسارعت دقات قلبها :

– ألو —— سيدة رجاء – هل أنت معي على الخط ؟

– آسفة – أهلاً يا أخ سالم كيف حالك ؟ خير !!

– أنا آسف إذا كنت قد اتصلت دون موعد مسبق ولكنك سمحت لي في المرة السابقة أن أعاود الاتصال بك للاطمئنان عليك وعلى الأولاد.

– صحيح – وأنا شاكرة لك على اهتمامك .

– هل انتهيت من إجراءات الخادمة ؟

– نعم – وقد وصلت الخادمة من أسبوع واستقرت الأمور في المنزل ثانية .

– جيد – جيد إذاً أنت مرتاحة الآن ؟

– الحمد لله – وشكرًا لك ثانية – مع السلامة .

– عفوًا – قبل أن تقفلي الخط هناك موضوع أريد محادثتك فيه .

– خير –

– بصراحة منذ التقيت بك في المرة الأولى شعرت بنوع من



الارتياح لك وكأني أعرفك منذ مدة .
- عفوًا - أنا .
- أرجوك —— لا تقاطعيني قبل أن أكمل حديثي - لقد سمحت لنفسي بالسؤال عنك وقد عرفت أنك إنسانة متعلمة ومن أسرة محترمة ، وقد شهد الجميع لك بالاتزان ودماثة الخلق - ويسعدني لو قبلت الارتباط بي .
- أنا - أعني - هذا مستحيل - فأنا بالكاد أعرفك - ثم
- وأنا مستعد لتعريفك بنفسي ، أنا سالم محمود ، موظف في الجوازات متزوج ولدي أربعة أولاد ، ولكنني امتلك دخلا مما ورثته من والدي من العقارات المؤجرة ما يمكني من التفكير في الزواج ثانية دون أن يؤثر ذلك على أسرتي وأولادي ، أنا من عائلة يؤمن رجالها بمبدأ تعدد الزوجات ما دام الرجل مقتدرًا ويستطيع العدل بينهن صدقيني يا رجاء سأريحك من عناء حياتك القاسية ولن أبخل عليك أو على أولادك الذين سيكونون بمثابة أولادي بشيء .
- يا أخ سالم - ما تقوله بعيد تمامًا عن تفكيري في الوقت الحالي - فأنا قد كرست حياتي من أجل أطفالي ، ولا أنوي التفكير مجددًا في أي ارتباط .
- أرجوك يا رجاء - لا تحرميني من مجرد التفكير في الموضوع .
- خير —— مع السلامة .

أغلقت الخط وظلت لفترة ساهمة تفكر ، حتى تناهى إلى سمعها أصوات شجار وأثاث يتهشم - أنهما الولدان يتشاجران ثانية ، لقد بدأت الحرب العالمية وعليها أن تفض الاشتباك قبل أن تتضاعف الإصابات والخسائر.



المشهد الأخير

آوت رجاء إلى فراشها متعبة بعد أن وضعت أسامة طفلها الصغير في مهده وتأكدت أن بقية أطفالها ينامون بهدوء في غرفهم .

كادت تستسلم لنوم عميق ولكنها هبت مذعورة وهي تتساءل :

– هل أغلقت باب الشقة ؟؟ ونافذة المطبخ أرجو ألا أكون قد نسيت إغلاقها مجددًا

عادت إلى فراشها واستلقت عليه بإعياء واضح وهي تنظر على السقف – لقد بدا لها السقف عاليًا هذا المساء وكأنها تراه لأول مرة – ثم حاولت جاهدة النوم .

تقلبت مرارًا في فراشها ، أزاحت عنها الغطاء فجأة وهي تزفر بضيق :

– ليتني استطيع النوم ولو لساعة قبل أن يستيقظ أسامة ثانية كعادته كل ليلة .

تذكرت سالم وعرضه المفاجئ فتساءلت في حيرة:

– أيمكن أن أقبل عرضه ؟! هل يمكن أن يكون في هذا البيت رجل من جديد ؟ والأولاد هل سيقبلون بهذا الرجل الغريب ليكون بديلاً عن والدهم ؟ وماذا عن عائلة سالم وعن زوجته وأطفاله ؟ هل سيقبلون دخولها في حياتهم أم أنها ستكون السبب في دماره ؟ ولكنه يقول أنهما على خلاف منذ سنوات حتى قبل أن تلتقي هي به ولن تكون هي السبب فيما وصلت إليه علاقتهما من تدهور ، وهي إنسانة عانت كثيرًا من الوحدة وثقل المسؤولية وتمنت كثيرًا أن تكون كغيرها من النساء وتحضى بزوج يشاركها متاعب الحياة وصعوباتها .

ولكن لا —— هي تستطيع أن تتحمل كل ذلك بمفردها ولن



تكون أبدًا السبب في تدمير أسرة مهما كانت ظروفها – لن تتسبب بأي أذى لمشاعر أطفالها . حينها فقط ابتسمت وأغمضت عينيها لتنام بهدوء – لقد عرفت أخيرًا —— قرارها الأخير



بقـايا أم..



لملمت فاطمة أطراف عباءتها حول جسدها النحيل ، ثم سارت بخطوات مرتعشة صوب المقبرة القديمة .

تجاوزت البوابة الرئيسة ، ثم توقفت للحظات تلتقط أنفاسها ريثما يتجاوزها حشد من المعزين ، ثم وضعت السلة التي كانت تحملها أمامها وبدأت في ترتيب حزم المشموم بعناية بعد أن رشتها بالماء .

استندت إلى الجدار من خلفها بوهن وأغمضت عينيها بعد أن مسحت بكم ثوبها دمعتين ساخنتين تدحرجتا على خديها .

- مساء الخير يا أم علي .

- مساء الخير يا ولدي راشد - كيف حال أمك موزة ؟

تلعثم راشد طويلاً وبلع ريقه مرات قبل أن يجيبها بصوت متردد :

- أمي - ليرحمها الله - لقد توفيت بالأمس وقد دفناها للتو - ألم يخبرك ابنك علي ؟؟

- ها —— ماذا تقول - دفنتوها .

ثم غطت وجهها بعباءتها وهي تنشج بقوة

- رحلت صديقتي - رحلت الحبيبة التي كانت تهون عليّ مصائب الدنيا - التي كانت تصل القريب والجار ——

مسح راشد دموعه بتأثر واضح وهو يربت على كتف أم علي بحنان وإشفاق كبيرين فهو يعلم العلاقة الوطيدة التي جمعت بينهما فقد تربتا في نفس الحي وعاشتا حياتهما سويًا وحتى بعد زواجهما وإنجابهما للأولاد ظلت علاقتهما كما هي لم تتغير .

- ليرحمها الله يا خالة - لم تقصر في تربيتنا وعانت الكثير وخاصة بعد وفاة الوالد حتى كبرنا وصرنا رجالاً واستقل كل منّا بحياته .

تنهدت أم راشد بعمق وهي تنظر للسماء :



– إيه ليرحمها الله ويرحمنا برحمته .

ثم التفتت إليه بحب ظاهر وهي تردد :

– لقد أصبحتم جميعًا رجالاً يشار لكم بالبنان ، ولطالما شعرت أمكم بالفخر .

– وأنت أيَضًا يا خالة لم تقصري في تربية أولادك علي ومريم وسبيكة.

– أولادي !!

ابتسمت بمرارة وأسندت رأسها للجدار من ورائها .

– خير ياخالة – هل ما زالوا لا يزورونك ولا يسألون عن أحوالك – لماذا لا تنتقلين للعيش في بيت أحدهم ؟

– اعيش مع من ؟! مع علي وزوجته الآسيوية — لقد جربت أن اعيش معهم لفترة وقبلت أن أخدمها بنفسي رغم ضعف صحتي في مقابل لقمتي عندهم – لقد استحملت كل إهاناتها لي في مقابل أن أنعم بعيشي قرب ابني وأحفادي ما تبقى لي من عمر ولا أحسبه طويلاً – ولكنها ضاقت ذرعًا بي وطردتني أمام ابني بحجة أن بيتها لم يعد يتسع لنا جميعًا وخاصة بعد أن استقدمت أخاها وزوجته ودبرت لهما عملاً.

– وعلي يا خـالة – هل قبل أن يعيش الغريب في بيته وتطرد أمه ؟

– علي مسكين لا حول ولا قوة له أمام زوجته – لقد سحرته اللعينة ولم يعد يستطيع أن يخالف لها أمرًا – ولم أرغب أن أخلق له أي مشاكل في بيته – يكفيني أن أعلم أنه بخير ويعيش سعيداً مع أسرته – أما أنا فلي ربٌ كريم لن ينساني .

– وبناتك يا خالة – لماذا لا تعيشين عند إحداهما ؟



- مريم تعيش ذليلة في بيت زوجها بعد أن حرمها الله من نعمة الانجاب - وزوجها يهددها دائمًا بالزواج ثانية لولا ضيق الحال لا أريد أن أزيد من مشاكلها بعيشي لديهم - يكفيها ماهي فيه أما سبيكة فقد شككت دومًا أن تكون هي نفسها ابنتي التي ربيتها ودللتها وفضلتها على أخوتها طوال حياتها - أنها لا تطيقني وتعاملني كالغريبة حاولت أن أتقرب لها كثيرًا وأن أغير من معاملتها السيئة لي ولأخوتها دون فائدة - تصور أنها كانت تتعمد أن تضاعف كمية الملح في طعامي كلما زرتها رغم علمها بمعاناتي مع مرض الضغط - حتى خادمتها كانت تشفق عليّ وتخصني بطعام مختلف كانت تعده لي دون علمها كلما كنت في زيارتهم .

هز راشد رأسه في أسى ثم قال لها في إشفاق كبير :

- تعالي يا خالة لتعيشي معي في بيتي - فأنا بمثابة ابنك - وتعلمين أن زوجتي وأولادي سيرحبون كثيرًا بك معنا - أننا جميعًا نحبك ونعتبرك أمنا .

- يا ولدي أنا أعلم بظروفك المادية الصعبة - فأنت بالكاد تتدبر أمور عائلتك ، كما أنك تتولى الانفاق على أخوتك الصغار بعد وفاة والدك - ليعينك الله ويساعدك على المسؤولية الكبيرة التي تتحملها لوحدك - لا تخف يا بني أنا بخير - والجيران يرعونني ويقدمون لي ما احتاجه - الدنيا ما تزال بخير يا بني - لقد نذرت أن أبقى ما تبقى لي من عمر هنا في المقبرة بجانب المرحوم أبيع المشموم حتى يأذن الله أن الحق به .

- ليطيل الله عمرك يا خالة فأنت بركتنا وأمنا جميعًا .

انصرف راشد منكس الرأس يشعر بحزن ومرارة كبيرين لأنه عاجز عن



انتشال هذه العجوز الغالية على نفسه من هذه الحياة الموحشة البائسة ، بينما جلست فاطمة تعيد ترتيب حزم المشموم وهي تدندن بإحدى المواويل الشعبية الحزينة تناجي فيه الحبيب الغائب وتعده بقرب اللقاء .

وفجأة القت بجسدها الواهن على الأرض وهي تتنفس بصعوبة ، لقد داهمتها إحدى نوبات الربو العنيفة التي تنتابها بين الحين والآخر – ظلت للحظات تحاول جاهدة أن تلتقط أنفاسها ، وأخيرًا شخصت ببصرها صوب السماء وقد ارتسمت على شفتيها إبتسامة هادئة ، وقد التفت عباءتها لتغطي جسدها وقسمًا كبيرًا من وجهها – بينما تناثرت من حولها حزم المشموم .

استمر المارة في تجاوزها وهم يعبرون بوابة المقبرة ، واكتفوا بهز رؤوسهم في أسى مرددين :

– ياللمسكينة —— لقد غلبها النعاس اليوم من شدة تعبها فنامت مكانها .

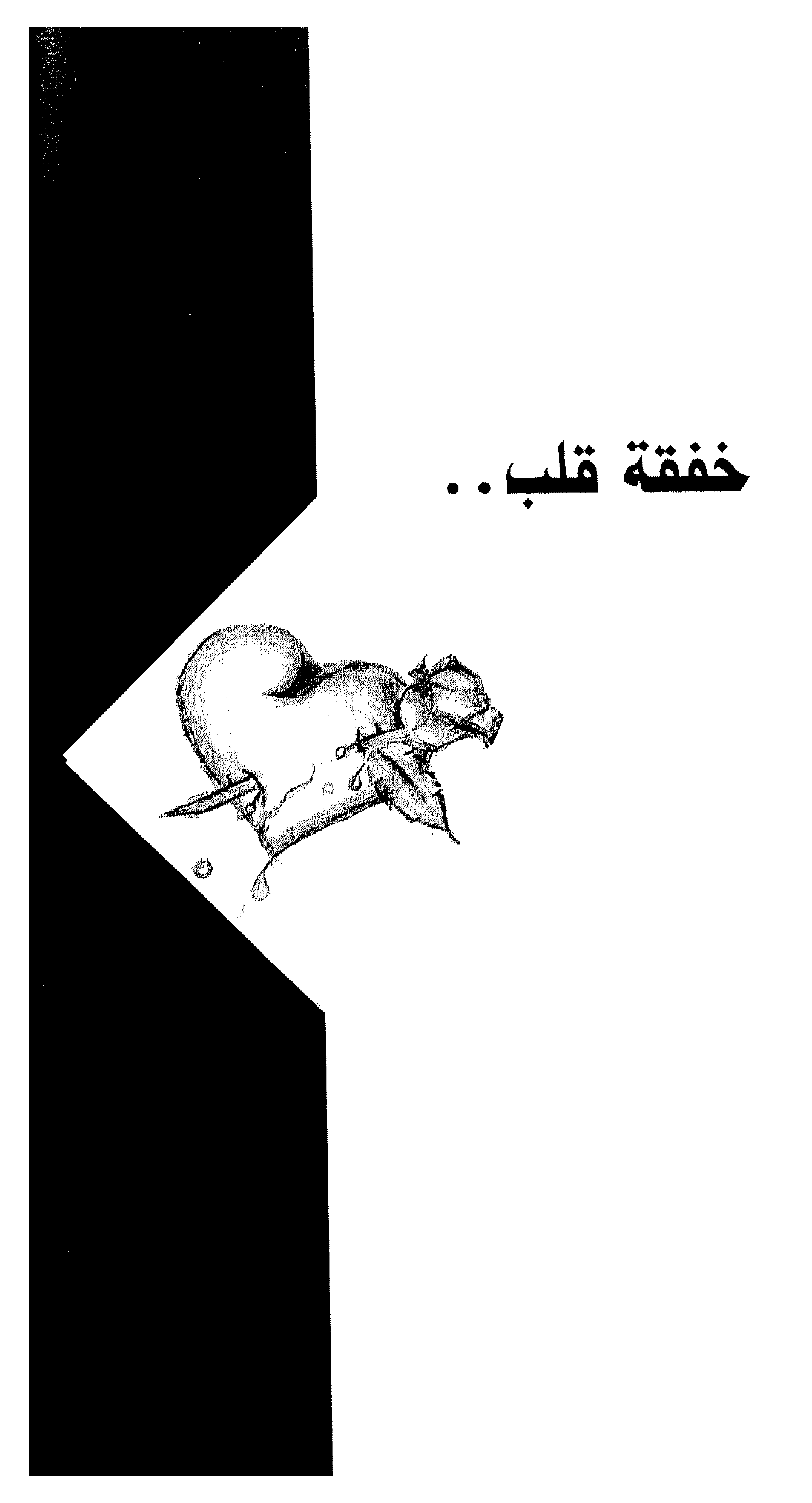
ولما بدأ الظلام يعم المكان تقدمت إليها إحدى جاراتها تهزها برفق قائلة:

– أم علي —— أم علي – لماذا تنامين هنا ؟ —— هيا لنذهب إلى بيتي لترتاحي هناك .

مضت فترة قبل أن تدرك الجارة أنها قد فارقت الحياة – لقد أسلمت الروح بهدوء وتم تشييع جنازتها في نفس اليوم لتنعم أخيرًا بالراحة والطمانينة التي افتقدتها طوال حياتها – لقد رحلت وحيدة كما عاشت طوال حياتها رغم من ألجبتهم من البنين والبنات – ليرحمك الله يا أم علي .



خفقة قلب..



- لا أستطيع مواصلة علاقتي بك بعد اليوم . أرجوك طلقني
قالتها سعاد بتوسل والألم يعتصر قلبها ويحيل الدنيا من حولها إلى سواد .

- لماذا ؟!!!

- لا يمكنني ذلك - لا أستطيع أن أظل على عصمتك كالسابق لم يعد ذلك من حقي —كنتما أنت وزوجتك في السابق شبه منفصلين بسبب خلافاتكما —— وكنت اكتفي بالأوقات القصيرة التي نقضيها معا سواء في العمل أو في ساعات فراغنا النادرة والقليلة في شقتنا الصغيرة - أما الآن - وبعد أن قررت العودة إليها - فلا حق لي في ذلك

- أنت تعرفين أنه لاشيء يربطني بها غير الأطفال .

- أعلم ولقد تكلمنا في ذلك مرارًا ، وقد نصحتك حينها أن تعود إليها من أجلهم

- ولكني لن أكون سعيدا معها - أنت تعرفين ذلك أيضًا .

- استمرار وجودي في حياتك سيجعل الموضوع أصعب صدقني لنواجه الواقع هذا أفضل حل .

- ولكن -

- وداعًا يا سامي وحظًا سعيدًا .

أقفلت سعاد الخط وظلت لفترة واجمة ، أحست فجأة بقشعريرة تسري في جسدها وكأنها توشك أن تصاب بنوبة حمى ، ثم بدأت دموعها تتساقط بغزارة .

لم تمض ثوان على فراقهما ولكنها بدأت تشعر أن الدنيا أصبحت خاوية من حولها وأن دورة الحياة والحركة في الكون قد توقفت .

لم تكن تدرك من قبل بقيمة وجوده في حياتها حتى قررت قطع علاقتهما ،



لقد أصبحت كمن يسير في الهواء في حالة انعدام وزن .
سرحت بخيالها إلى أول مرة التقيا فيها ، كانت قد التحقت للتو للعمل بالمستشفى كباحثة اجتماعية بعد تخرجها من الجامعة ، وقد وجدت في هذه الوظيفة خير متنفس لها لتهرب من تجربتها الفاشلة مع راشد .
أغمضت عينيها بقوة ، وزفرت بضيق عندما تذكرت راشد الذي كان زميلها في الجامعة ، ربطت بينهما علاقة حب عاصفة ، كانا لا يفترقان وقد تعاهدا على الزواج بعد تخرجهما ، ولكنها فوجئت به يتزوج من إحدى زميلاتها الثريات ويترك الدراسة ليترأس إحدى شركات والدها .
كم كانت فترة عصيبة من حياتها تركت شرخًا في روحها لم تتصور أنها ستبرأ منها حتى التقت صدفة بسامي .
كانت منكبة على كتابة تقرير عن حالة طفلة تولت متابعة حالتها منذ أيام. لم تكن سمر قد تجاوزت العاشرة من عمرها ولكن تم إدخالها المستشفى وهي تعاني من حالة توّحد شديدة ترافقها نوبات صرع متقطعة .
وقف أمامها سامي بقامته الطويلة يتأملها للحظات وهي مستغرقة تمامًا في تدوين ملاحظاتها عن زيارتها لسمر هذا اليوم حتى أنها لم تشعر بدخوله المكتب :

الآنسة سعاد – اليس كذلك ؟

انتفضت سعاد بقوة وهي ترفع رأسها لرؤية محدثها :

– نعم – هل من خدمة أقدمها لك –يا .

ثم القت نظرة خاطفة على البطاقة المثبتة على معطفه الأبيض الذي يرتديه :

– يا دكتور سامي .

– أنا الدكتور سامي محمود أختصاصي الأطفال ، وقد أخبرتني الممرضات في الجناح (٣٧) أنك توليت دراسة حالة الطفلة



سمر ، وأنك الوحيدة التي تتجاوب معها .

- آه سمر - في الحقيقة لقد كان رئيسي في القسم الدكتور مروان هو الذي يشرف على علاجها شخصيًا منذ وصولها إلى المستشفى ، ولكنه اضطر للسفر فجأة لحضور ندوة علمية في الخارج وقد كلفني بمتابعة الحالة ريثما يعود .

- وكيف تقيمين حالتها ؟

-سمر طفلة ذكية وحساسة جداً، وكانت الطفلة الوحيدة لوالديها ولكنها اصيبت بهذه الأعراض بعد حادثة أبويها المأساوية .

- أي حادثة ؟!!

-لقد كان والد سمر يمتلك مصنعًا للأدوات المنزلية البلاستيكية، وكانت تدر عليه أرباحًا كبيرة حتى دخل قريب لهم معه كشريك في المصنع بعد إلحاح شديد من زوجته لأنه كان زوجاً لابنة عمها، ومن هنا بدأت المتاعب وبدأت أمور المصنع تضطرب وزاد سخط الزبائن والمتعاملين من التجار على إدارة المصنع بسبب تلاعب هذا الشريك بالأسعار وعدم التزامه بمواعيد الزبائن عند تسليم البضائع فلم يجد والد سمر بدًا للحفاظ على سمعة مصنعه من مطالبة شريكه بالانسحاب مقابل دفع مبالغ من المال له على سبيل التعويض ، ولكنه كان قد وضع نصب عينيه الاستيلاء على المصنع شيئًا فشيئًا وقد بدأ بالفعل في تزوير عدد من المستندات استطاع والد سمر ولحسن الحظ من مصادرتها في الوقت المناسب بسبب يقظة محاسب أمين كان يعمل لديه منذ فترة طويلة .

انتقل خلافهما إلى ساحات المحاكم بعد أن تبادل الطرفان الدعاوى بحجب الثقة والاتهامات المتبادلة بينهما بالغش



والاحتيال وعندما أحس الشريك بقوة موقف والد سمر خطط بطريقة شيطانية للتخلص منه وقد نجح للأسف في ذلك .

اعتدل سامي في جلسته وهو يحاول الاستماع إلى بقية القصة باهتمام كبير :

- كيف ؟!!

- دبر حادثًا مفتعلاً أودي بحياة والديّ سمر ، فقد تعقبهما لحظة خروجهما من المنزل لزيارة جد سمر الذي كان في المستشفى بينما بقيت سمر لحسن الحظ في المنزل مع مربيتها لإصابتها حينها بجدري الماء ، وفي إحدى المنعطفات الخطيرة حاد الشريك صوب سيارتهما مما اضطر والد سمر للاندفاع المفاجئ في اتجاه السيارات المعاكس

- ياللمصيبة - وماذا بعد ؟

- حاول هذا المجرم النجاة بفعلته لولا التفاف السواق الذين شهدوا محاولته الإجرامية هذه حوله وسلموه للسلطات وتمت محاكمته وهو الآن نزيل السجن .

- وسمر ماذا عنها ؟

-لقد أصيبت بصدمة كبيرة لفقدها كلا والديها بهذه الطريقة البشعة وقد تولت جدتها لأبيها رعايتها بعد ذلك ولكن كل محاولاتها المضنية للتخفيف عنها وتعويضها عن خسارتها الفادحة لم تجد نفعًا ، لقد ظلت سمر ترفض الطعام والكلام أو حتى محاولة الاتصال بأي شكل مع المحيطين بها ، لقد صنعت لنفسها عالمًا مختلفًا عن العالم الحقيقي من حولها وكانت هذه طريقتها الخاصة لإعلان رفضها الاستمرار بالحياة دون والديها .

- يا للمسكينة !!



– في الحقيقة لم التق بسمر سوى عدة مرات ، ولكنها طفلة رائعة ويشع الذكاء من عينيها ، وبسبب حبي الكبير للأطفال استطعت تجاوز الجدار الذي نصبته سمر بينها وبين الآخرين بعض الشيء .

– هل تكلمت معها ؟

– انتزعت منها بالتدريج بضع كلمات متناثرة بينما كنا نلوّن بعض الرسومات .

–آه – اختصاصية اجتماعية وفنانة – مواهب متعددة في شخص واحد .

لم تتمالك سعاد نفسها من الابتسام فقد قالها بطريقة تهكمية مرحة محببة للنفس .

– عمومًا هل يمكنني أن أزورها معك في الغد ؟

– بالطبع – أرحب بأي محاولة جادة تسهم في تقدم حالة هذه الطفلة المسكينة وتخرجها من عزلتها الفظيعة التي تحرمها فرصة الاستمتاع بطفولتها كأي طفلة .

– جميل – إذن نلتقي عندها حوالي الساعة العاشرة من صباح الغد–إلى اللقاء .

تكرر لقاؤهما بعد ذلك عند سمر التي وجدت فيهما الحب والحنان الصادقين ——

كانت سعاد منكبة على صورة فراشة تلونها مع سمر ، وقد افترشتا الأرض فيما تناثرت أقلام التلوين حولهما في كل مكان .

كانت سمر سعيدة وهي تعرض الجزء الذي لونته للتو على سعاد ، فعانقتها سعاد بقوة وهي تردد :

– أنت فعلاً طفلة ذكية وموهوبة – تلوينك رائع يا حبيبتي .



- بل أنت الرائعة يا سعاد .

انتفضت سعاد لسماع صوت سامي المفاجئ من خلفها ، شعرت بالدماء تتدفق إلى وجهها وقد تسارعت دقات قلبها ، ولكنها جاهدت لتتمالك نفسها حتى لا يشعر باضطرابها ، فاعتدلت جالسة وهي تعيد ترتيب ملابسها :

- أهلاً دكتور سامي - متى وصلت ؟

- منذ بدأت سمر فنانتنا الصغيرة في تلوين هذا الجزء - أنت محقة يا سعاد فموهبة سمر في الرسم والتلوين واضحة جدًا - حتى أنني أفكر بصورة جدية في عرض لوحاتها في قاعة الطعام الرئيسة للجناح .

- أوه - هذا رائع ----- كم أنا سعيدة من أجلك يا حبيبتي .

وعانقت سمر بسعادة ، وفجأة انسابت كلمات متناثرة من فم سمر لم تتبينها سعاد في البداية لهول المفاجأة ، فقد همست سمر بخجل :

- وأنا أحبك كثيرًا يا ماما سعاد - وأحب الدكتور سامي أيَضًا .

تبادل سامي وسعاد نظرات سعيدة فرحة ، فقد نجحا أخيرًا في إخراج سمر من عزلتها والتمعت الدموع في عيني سعاد بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة ، تأملها سامي لفترة قبل أن يهمس بعذوبة :

- تبدين في غاية السحر والجمال وأنت تبتسمين - فلماذا هذا الوجوم الذي يكسو وجهك على الدوام ؟!!

تشاغلت سعاد بجمع الأوراق والأقلام من حولها واستعدت لمغادرة الغرفة ، ولكن سامي اعترض طريقها في تصميم واضح :

- لا تتهربي من سؤالي - لقد نجحت للتو في علاج طفلة كانت حالتها ميئوس منها فهل تفشلين مع نفسك فيما نجحت فيه مع الآخرين ؟



انتفضت سعاد كمن لدغها ثعبان ، وأجابته بحدة لم تعتدها من قبل :
- لست حالة من حالاتك يا دكتور - أرجوك دعني وشأني .
قالتها بشئ من العصبية ، وهمت بمغادرة الغرفة ، ولكنه عاد من جديد في اعتراض طريقها فقد عقد العزم على كشف سر حزنها الدائم الذي أثار حيرته مذ عرفها :
- أنت أهم حالاتي يا سعاد - بل أنت حياتي بأسرها —— ألم تدركي بعد حقيقة مشاعري تجاهك ؟!!
همس بعذوبة ، فأغمضت سعاد عينيها وهمست برجاء :
- يكفي دكتور سامي - أرجوك - لا أستطيع ان أخوض تجربة أخرى - لن أستطيع تحمّل صدمة عاطفية أخرى في حياتي - أرجوك .
- أرجوك يا سعاد - لا تصدري هذا الحكم المسبق على علاقتنا
- دعينا نعطي أنفسنا فرصة - لست كسواي .
شعرت بصدق كلماته التي نفذت إلى قلبها مباشرة ، فتهاوت على أقرب كرسي وهي تحدق بحزن إلى الأرض ، ثم وضعت رأسها بين يديها في محاولة يائسة لاستجماع شجاعتها على الحديث .
جلس سامي بقربها صامتًا لفترة ، وأخيرًا بدأت سعاد بالحديث ،فحكت له بشيئ من الأسى قصتها مع راشد وصدمتها به ، وحدثها هو عن زواجه وخلافاته المستمرة مع زوجته التي أوصلت زواجهما إلى طريق مسدود رغم محاولاته اليائسة للحفاظ عليها من أجل الأولاد - لقد كانا يعيشان كالغريبين تحت سقف واحد حتى قررا أخيرًا الانفصال وتركت زوجته المنزل ومعها أولاده ، صار لا يراهم إلا نادرًا فقد منعته من رؤيتهم رغم جميع الوساطات .
مضت علاقة سعاد بسامي بعد زواجهما بفترة هادئة ورائعة وحتى بعد



عودة سمر إلى منزل جدتها بعد أن استعادت طبيعتها وحيويتها كطفلة بفضلهما سويًا ، فقد كانا يشكلان فريقًا ثنائيًا رائعًا بشهادة الجميع في المستشفى .

حتى جاءها يومًا على غير عادته مضطربًا وجلس أمامها زائغ البصر :

- خير يا سامي - هل حدث مكروه لأحد من الأولاد لا سمح الله ؟

- سعاد - هناك - هناك موضوع أريد محادثتك فيه .

- وهل تحتاج لعقد مؤتمر للتحدث معي ؟

قالتها بطريقتها المرحة في الكلام ، ولكنها توقفت عن مواصلة حديثها وهي تلحظ شحوب وجه سامي والرعشة الواضحة على حركات يديه :

- سامي تحدث أرجوك - لقد بدأ الرعب يتسلل إلى نفسي .

- زوجتي - أعني - أقصد - لقد استطاع أخوها بعد محاولات مستميتة إقناعها بالتراجع عن قرار الانفصال وأن نستأنف حياتنا ثانية معًا كزوجين - من أجل الأولاد .

أحست سعاد بالأرض تميد تحت قدميها فوضعت الملفات التي كانت ترتبها في الخزانة جانبًا ، وتهاوت على أقرب كرسي ، رسمت على وجهها ابتسامة باهتة وهي تردد بصوت مرتعش :

- مبروك - مبروك يا سامي - أخيرًا اقتنعت بكلامي - ليوفقك الله .

- تعلمين هيثم يمر بمرحلة صعبة ، هو لم يستطع كبقية أخوته تقبل قرار انفصالنا أنا ووالدته ، لقد أصبح عنيداً وعدوانيًا ، لقد اشتكت والدته منه مرات عديدة ولكن هذا لن يغير شيئًا من مشاعري نحوك وسنظل كما نحن سويًا .

انتفضت سعاد ورددت في داخلها بمرارة



(نظل كما نحن – هذا محال—— بل هو ضرب من المستحيل)
ولكنها تمالكت نفسها بصعوبة :
– لا عليك يا سامي – اذهب إليها الآن وسأتصل بك لاحقًا –
غادر سامي مكتبها ، وألقت سعاد رأسها بين كفيها ، وهي تشهق بقوة إنها الصدمة الثانية في حياتها ، بعدما أحست أخيرًا بالأمان وتذوقت طعم الاستقرار .
كم هي قاسية هذه الحياة بدونه ، هل يمكنها أن تحتمل ألا تراه أو تتحدث معه كالسابق من جديد ؟
ولكن لابد أن تضحي من أجله ، ليعيش سعيدا مع أطفاله كالسابق ، ستحتمل أن تعيش بلا قلب – بلا روح – ولكنها لن تقف أبداً في طريق سعادته .
لتهنأ يا سامي بحياتك مع أسرتك من جديد وليرحمني الله .





صدفة..

المشهد الأول

تسللت أشعة الشمس الذهبية عبرالنافذة التي اعتادت كوثر أن تبقي ستائرها غير مسدلة أثناء نومها بإحكام ، فقد كانت تكره النوم في الظلام الدامس ، وتشعر ببعض الراحة عندما تصلها بعض الأضواء الخافتة . تمطت بكسل قبل أن تلقي نظرة خاطفة على الساعة الصغيرة بجانب سريرها ، كانت عقاربها تشير إلى الساعة السادسة صباحًا فانقلبت على الجانب الآخر وغطت رأسها بالوسادة .

تقلبت بضيق عدة مرات في محاولة مستميتة منها للعودة إلى النوم دون جدوى . قبل أن تزيح الغطاء عنها بقوة وهي تزفر بضجر :

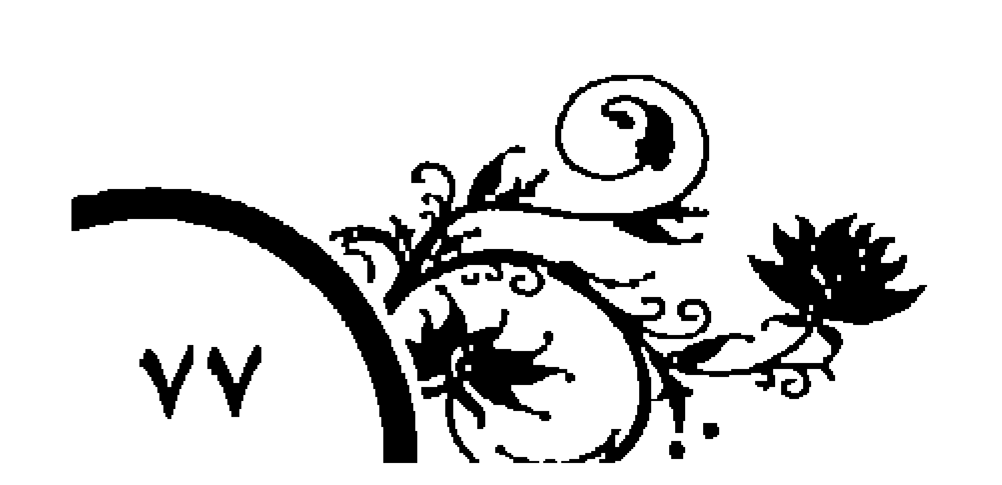
– تبًا كم أتمنى أن أنام إلى ساعة متأخرة كغيري يوم الإجازة.

وقفت عند النافذة تنظر من خلالها إلى مجموعة من عمال النظافة بدأوا في عملهم باكرًا كالمعتاد ، بينما انهمك جارهم أنور في تنظيف سيارته قبل أن يتوجه لعمله .

عادت إلى سريرها ، واستلقت على ظهرها تحملق في السقف ، اعتدلت جالسة ثم توجهت لتقف عند المرآة تعيد ترتيب شعرها الذي تناثرت خصلاته على وجهها .

تأملت وجهها الذي بدا غاية في الجمال بعينيها الواسعتين وأنفها البارز في تناسق بديع مع وجهها الأبيض المستدير .

لم تكن قط سعيدة بنظرات الإعجاب التي تلاحقها أينما ذهبت ، ولكنها رغم ذلك تشعر بوحدة كبيرة ، وبفراغ عاطفي أكبر ، وكانت تتوق شوقًا لمقابلة شخص ما تبادله حب صادق ونقي ، من النوع الذي قرأت عنه طويلاً في الروايات الرومانسية التي تعشق قراءتها منذ طفولتها و كانت تبحث عنه في كل الوجوه من حولها في أي مكان تقصده ولكنها لا تلبث



أن تعود ببصرها خائبة .
انتبهت من شرودها على صوت هاتفها المحمول :
– ألو كوثر – أما زلت نائمة أيتها الكسولة ؟
– من ؟ منال ! لا أصدق متى وصلت البحرين ؟
– بالأمس – وقد حاولت منذ وصولي الاتصال بك مرارًا دون جدوى .
– وأين تسكنين ؟
– في فندقنا المعتاد – اسمعي هل يمكنك المرور عليّ لنذهب سويًا للتسوّق فعماد مشغول بولدينا اللذين أصرا على النزول لحوض السباحة بالفندق منذ الصباح الباكر.
– طبعًا – سأكون عندك في تمام العاشرة – اتفقنا .
– اتفقنا .

كم اشتاقت لصديقة طفولتها التي قضت معها أجمل أيام طفولتها وصباها وكانتا كالأختين لا تفترقان إلا للنوم ، ولكن حبها لابن عمها عماد الذي يعيش في الخارج كملحق ثقافي وزواجها منه بعد تخرجهما من الجامعة فرق بينهما .

وفي الموعد المحدد كانت كوثر توقف سيارتها عند مدخل الفندق ، وتحث خطاها نحو مكتب الاستقبال .
– عماد حسين من فضلك .
– إنه في الغرفة ٢٤
– فقط أعلم زوجته أنني انتظرها في بهو الفندق .

ثم تقدمت نحو أول كرسي صادفها في بهو الاستقبال وجلست عليه ، انصرفت لقراءة مقالة أعجبتها في إحدى المجلات الموضوعة أمامها على الطاولة ، ولم تشعر بعينين متفحصتين كانتا تراقبانها منذ وصولها الفندق



كان البهو خاليًا من الناس سوى رجلين ارتدي أحدهما ثيابًا صيفية خفيفة وكان يتكلم بلكنة أجنبية غريبة فيما ارتدى الثاني الثياب الخليجية وقد استرسلا في حديثهما حول صفقة تجارية هامة يعتزمان القيام بهما سويًا .
ابتسمت كوثر لعماد الذي أقبل نحوها وهو يتصبب عرقًا وألقى بنفسه في إعياء على المقعد الذي أمامها فيما أسرع الطفلان والماء يتصبب من شعرهما وهما يحاولان جاهدين تجفيفها بالمنشفة نحو المصعد :

– أهلاً كوثر —— ما أخبارك —وكيف حال أسرتك ؟

– بخير – كيف حال منال والأطفال ؟

– على ما يرام – ستوافيك خلال دقائق ، لا تنسي أن تتوخي الحذر أثناء قيادتك للسيارة .

لم تتمالك كوثر نفسها من إطلاق ضحكة مجلجلة حاولت أن تكتمها بيدها وأردفت قائلة :

– أما زلت تشك بقدراتي في قيادة السيارة رغم كل هذه السنين؟

– النساء لا يجدن القيادة مهما طالت سنوات خبرتهن ، وهذا ما يدفعني لرفض فكرة قيادة منال للسيارة رغم محاولاتها المتكررة لإقناعي .

– رغم شهاداتك الجامعية وثقافتك الواسعة ما زلت تحتفظ بهذا الجزء الشرقي المتزمت من المرأة والذي ينظر لها ككائن ضعيف هش يحتاج لرعاية الرجل وحمايته – ولا تستطيع تغيير أنملة من الحياة من حولها .

تابع الرجل خلفها حديثها بشيء من الإعجاب ، وظل في مكانه يتابع حديثهما رغم انصراف ضيفه .

– وأنت على الرغم من تعليمك العالي ووظيفتك المرموقة ما



زلت تتمتعين بنفس الروح الطفولية المشاكسة ولم تتوقفي عن دفاعك المستميت عن المرأة وحقوقها السليبة في نظرك —— كم اتمنى أن تقترني برجل يلجمك قليلاً .

– لا وجود لرجل يجبرني على التخلي عن قناعاتي ومبادئي ولن أكون يومًا خاضعة لرجل يلجمني ويتحكم في حريتي واستقلالي الشخصي .

– أما زلتما تناقشان نفس الموضوع الذي يتكرر كلما تقابلتما؟

تقدمت منال منهما باسمة ، فهبت كوثر لعناقها بحب وود ظاهرين :

– أه منال – حمدلله على سلامتك – كم تسعدني رؤيتك من جديد.

– وأنا أيضًا لقد اشتقت لك كثيرًا وكأنه مر دهر منذ تقابلنا آخر مرة .

– وأنا ألم تشتاقي لنقاشي وآرائي الحكيمة الصائبة .

فغمزت منال لكوثر وهي تدفعها أمامها برفق قائلة :

– لنسرع قبل أن يبدأ عماد بمحاضرته المعهودة .

سارتا وهما تكتمان ضحكتيهما بينما لاحقهما عماد بعينيه وهو يصيح:

– منال —— لا تتأخرا – سأنتظر عودتكما على الغداء في الواحدة .

– سنكون هنا قبل الواحدة .

ردت عليه كوثر ثم أضافت ضاحكة :

– على أن تحضّر لي وليمة تليق بي .

قهقه عماد ضاحكا وهو يرد عليها في مرح :

– ارجعي زوجتي سالمة إلى الفندق ولك ما تريدين – بالمناسبة لا تنسي يا منال أن تأخذي هاتفك المحمول معك حتى اطمئن



عليك – فما زلت غير واثق تمام الثقة من مهارة صديقتك في القيادة .

– لا داعي يا عماد – فهاتفي المحمول معي —— سجل رقمه —— ولا تخف على زوجتك وأعدك أن اعيدها لك سالمة .

أملت كوثر رقم هاتفها على عماد الذي خزّنه في هاتفه وهو يتبادل نظرات باسمة مع زوجته وصديقتها ،ولم ينتبه أحدهم أن الرجل الجالس خلفهم قد دوّن الرقم أيَضا وهو يحاول جاهدًا أن يداري ضحكة مكتومة وهو يتابع حديثهم المرح هذا .



المشهد الثاني

جلس الجميع حول طاولة كبيرة اختارها عماد بنفسه بعناية ، فيما انشغل النادل بترتيب أنواع الطعام الكثيرة التي طلبها عماد لهم . لكزت كوثر صديقتها منال وهي تهمس لها :

– مسكين زوجك – يبدو أنه كان قلقًا عليك وأنت معي كثيرًا لذا حرص على تنفيذ طلبي للوليمة – يالها من أصناف تبدو شهية جدًا .

– فعلاً ويبدو أنني سأخسر كل ما فقدته من وزن في الفترة الأخيرة خسارة الرجيم القاسي والتمرينات الشاقة طوال أسابيع .

– لا عليك – لنستمتع بهذه الوليمة الآن – وفكري بالرجيم لاحقًا .

– فعلاً – ياللرجال – من السهل خداعهم –

– لا يا عزيزتي ليس كل الرجال طيبون كزوجك – أنهم أباليس.

– عفوًا – هل كنت تكلميني يا كوثر ؟

تساءل عماد في براءة .

– لا – كنت أخبر منال كم هي محظوظة بك – وأوصيها أن تهتم بك ولا تفرط فيك أبدًا فأمثالك من الرجال قليلون .

ابتسمت منال إبتسامة مفتعلة وهي تهمس لكوثر بصوت منخفض :

– يالك من داهية – كم أشفق على المسكين الذي ستتزوجينه.

– سيكون أكثر الرجال حظًا في العالم إذا التزم بالتعليمات والشروط التي سنتفق عليها – أما إذا فكر أن يمارس سلطاته كرجل شرقي متزمت – فالويل له .



لم تكن الفتاتان تدركان أن الرجل الجالس خلفهما مباشرة قد تعمد أن يستمع لكل كلمة نطقا بها و قد ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتيه وهو يردد في نفسه :

– (هل تعتبرين نفسك ماكرة وتفوقين الرجال دهاءً – لنر من سيكون الفائز في النهاية .)

قضى الرجل طوال الوقت يراقب كوثر عن كثب ، وانصرف بخفة قبلهم حين بدأوا يستعدون للمغادرة .

شعر براحة كبيرة عندما سمع كوثر تقبل منال مودعة وهي تقول :

– سأكون عندك حوالي الساعة الرابعة لنواصل التسوق .

إذن عليه أن يبدأ في تنفيذ خطته فورًا .



المشهد الثالث

عند الساعة الرابعة أوقفت كوثر سيارتها عند باب الفندق ، وترجلت منها على عجل ودخلت إلى البهو ، تلفتت حولها فلم تجد منال في انتظارها : لم تتغير منال رغم كل هذه السنين - إنها لا تلتزم بأي موعد - على عكسها هي . اتجهت إلى الاستقبال لتطلب منهم أن يبلغوها بوصولها .

وفي هذه الأثناء كان أحدهم يفرغ إطارات سيارتها من الهواء ، ثم ينسل عائداً دون أن يلحظه أحد ثم استقل سيارة حرص أن يوقفها في مكان يسهل عليه فيها مراقبة ما يحدث .

بعد فترة خرجت الفتاتان من الفندق وهما تتبادلان حديثًا ضاحكًا ، بينما كان عماد يراقبهما من خلف نافذة البهو بقلق واضح .

انطلقت كوثر بسيارتها ، وهي تتبادل الأحاديث مع منال ، ولم تلحظ سيارة كانت تلاحقهما أينما ذهبتا .

وبعد فترة قصيرة أحست كوثر بحركة غريبة في سيارتها ، فتوقفت جانبًا عند أقرب منعطف للطوارئ ، وترجلت من سيارتها وطافت حولها وهي ترفس الإطارات بقدمها وتوقفت عند الإطار الخلفي وهزت رأسها في عجز .

أطل وجه منال وهي تتساءل في قلق :

- خير - هل عرفت ما المشكلة ؟

- للأسف - الإطارات خالية من الهواء ولابد من تغييرها .

- آه - ضاعت فرصتنا للتسوق هذا اليوم - لا عليك سأتصل بعماد حالاً - ولكن استعدي لتعليقاته الساخرة .

- أعلم - سيجدها خير فرصة لاثبات أننا نحن النساء لسنا جديرات بسياقة السيارة وأننا لا نستغني عن وجود الرجال في



حياتنا .

انشغلت منال بمكالمة عماد ، بينما وقفت كوثر تنظر إلى الإطار بحسرة وهي تردد

– ليتني تعلمت كيف استبدل الإطارات – لما تعرضت لتعليقات عماد التي ستلاحقني لفترة ليست بالقليلة .

توقفت فجأة سيارة بجانبها ،وأطل منها شاب تبدو عليه إمارات الثراء وسأل كوثر وابتسامة ساحرة تعلو شفتيه :

– عفوًا آنسة – هل أستطيع مساعدتكما في شيئ ؟؟

– شكرًا – فزوج صديقتي في طريقه إلينا .

– أنا مستعد لأي خدمة – فقط أشيري بطرف أصبعك الجميل هذا .

ضغطت كوثر على أسنانها بقوة وهي تحاول جاهدة التصرف معه باحترام:

– شكرًا لك مرة أخرى – أخبرتك أن أحدهم في طريقه إلينا .

– ولكني مصر أن أخدمك – فمن في جمالك ورقتك لا يجوز أن تظل في الشمس

– أنت لا تعرف ما يمكن لمن مثلي أن تفعل إذا شعرت بالغضب.

وانحنت تلتقط حذاءها وهي تستعد لرميه بقوة في وجهه ، لولا انطلاقه بأقصى سرعته مخلفًا سحابة من الدخان .

كتم الرجل الذي كان يلاحقهما ضحكة مجلجلة وهو يردد باعجاب ظاهر :

– يا لها من فتاة – يصعب أن يصادف المرء مثلها هذه الأيام .

ولم ينطلق بسيارته إلا عندما لمح عماد مقبلاً في سيارة أجرة وقد ارتسمت إبتسامة نصر كبيرة على شفتيه .



المشهد الرابع

استعد الرجل الغريب لتنفيذ المرحلة الثانية من خطته مع كوثر
وفي اليوم التالي كانت كوثر ومنال في طريقهما لزيارة صديقتهما مريم التي أصرت على دعوتهما في بيتها حالما علمت بوصول منال .
كانت مريم صديقتهما المشتركة ، وقد تعرفتا إليها عندما انتقلت أسرتها للمنزل المجاور لبيت كوثر .
كانت تقاربهما في السن ، لذا سرعان ما توطدت أواصر الصداقة بينهن وكن يتبادلن الزيارات بعد انتهاء يومهن المدرسي .
كانت مريم فيلسوفة المجموعة ، وعقلهن المدبر ، وكثيرًا ما لجأن إليها كلما وقعن في مشكلة ، فتجلس أمامهما بكل وقار وتعيد تعديل وضع نظارتها الطبية عدة مرات قبل أن تبدي رأيها في أي أمر .
حاولت منال تأجيل هذه الزيارة لضيق الوقت قائلة :

– مريم – بصراحة المتبقي من وقتي بالبحرين قصير – فعماد أنهى العمل الذي جاء من أجله –لابد أن يعود لعمله خلال أيام .

– لا مزيد من الأعذار – لقد وعدتني في المرة السابقة أن تزوريني وكوثر حالما تحضرين للبحرين —سأكون بانتظاركما في السابعة ..كم اتشوق لاستعادة أوقاتنا السعيدة معًا – أرجوك يا منال .

– حاضر يا مريم – سنكون في الموعد عندك – فأنا في شوق لاستعادة ذكرياتنا الجميلة معًا أيضًا – فقط لا تنسي أن تجهزي الألبوم القديم الذي تحتفظين فيه بصورنا معًا .

– سأفعل — فقط لا تتأخرا كعادتكما .

كان الرجل قد أعدّ لهما مفاجأة صغيرة ، فقد لاحظت كوثر أن سيارة بها رجلان مريبان تتعمد ملاحقتهما منذ خروجهما من الفندق ، تظاهرت



كوثر بالشجاعة وهي تحاول جاهدة ألا تلفت انتباه منال ولكن اضطرابها الشديد وتلعثمها في الكلام فضحها :

– ما بالك يا كوثر ؟ لا تبدين طبيعية منذ خرجنا من الفندق ؟

– لا تشغلي بالك – أنا فقط أفقد أعصابي إذا ازدحم الشارع بالسيارات بهذه الكثافة – أنت تعرفين أنني لا أطيق الانتظار في طابور متوقف من السيارات طويلاً .

– ولكن الطريق غير مزدحم – نحن نسير بسهولة دونما أي توّقف – ثم لاحظت أنك تنظرين من خلال المرآة الأمامية هل أنت متضايقة من السيارة التي تسير خلفنا ؟

وهمت بالالتفات إلى الخلف ، فصرخت كوثر بطريقة أفزعتها وجمدت الدم في عروقها:

– لا تنظري إلى الخلف – أرجوك .

– لماذا ؟ وما الذي يثير خوفك إلى هذه الدرجة ؟

– لم أكن أود أن أثير فزعك ولكن هذه السيارة تلاحقنا منذ خرجنا من الفندق .

– وما أدراك – ربما تصادف أن طريقنا واحدة .

– لقد حاولت تغيير الطريق عدة مرات ولكنهما كانا في إثرنا أينما ذهبنا .

– وما العمل ؟ هل اتصل بعماد ؟

– لا –

صرخت كوثر بحدة :

–أرجوك لا تعطي عماد الفرصة ليسخر مني – فهو لم يتوقف بعد عن تذكر مشكلة الإطارات ويتلذذ في إثارة غيظي وتذكيري بها كلما رآني .



– لا أدري لماذا لا تتوقفان عن التصرف كعدوين لدودين معًا رغم ثقتي أن كلاكما يحترم الآخر ويقدره .
– صدقيني نحن نتظاهر بذلك فقط – ولكني اعتبره كأخ عزيز.
– وهو كذلك ويقول لو كان لي أخ لما أخترت له غير كوثر كزوجة رغم أفكارها الثورية عن مقاومة سلطة الرجل.
– دعينا من هذا الحديث الآن ولنفكر سويًا في حل لهذين اللذين يلاحقاننا منذ مدة –
– لا أعرف – توقف عقلي عن العمل – أين مريم الآن ؟ فهي وحدها تمتلك الحل لهذه الورطة .
– فكرة – لنتصل بها الآن – اطلبي رقمها يا منال – رقمها مسجل في ذاكرة هاتفي المحمول .
استمعت مريم للمشكلة كعادتها بصمت ، ومضت لحظات قبل أن تنطق بهدوء وثبات :
– عليكما الاتجاه إلى أقرب مركز للشرطة وتوقفا أمامها بعد أن تتظاهرا أنكما قد سجلتما رقم سيارتهما ، وصدقاني لن يتجرأ الرجلان على الاستمرار في تعقبكما .
وبالفعل نجحت خطة مريم واستطاعت كوثر مواصلة قيادتها لسيارتها متجهة لبيت مريم .
وفي الصباح جلس الجميع حول مائدة الافطار ، وقد ارتسمت على وجه عماد إبتسامة عريضة بينما أخفضت كوثر رأسها وهي تتحاشي النظر إلى وجه عماد :
– ها يا كوثر – أما زلت تعتقدين إنك قوية ولا تحتاجين لمساعدة أي رجل ؟
استند الرجل الغريب بظهره محاولاً أن لا تفوته كلمة من رد كوثر :



- في الحقيقة يا عماد - أنا اعتقد أن ماحدث مجرد صدفة وقد يصادفها أي شخص رجلاً كان أم امرأة .

- صحيح - لذلك نظل نحتاج بعضنا البعض - نحن رجال ونساء نكمل بعضنا البعض - ولا غنى لأحدنا عن الآخر .

- ليس كل الرجال مثلك عقلاء ومنطقيين في تفكيرهم وينظرون إلى المرأة بهذا القدر من التقدير والاحترام - لو وجدت مثل هذا الرجل لن اتردد لحظة في الاقتران به دون تفكير .

انتصب الرحل الغريب واقفًا فور سماعه هذه الجملة قائلاً :

- وربما هو قريب منك أكثر مما تتصورين - وينتظر فقط أن يسمع منك هذا الكلام .

انتفضت كوثر فزعة من هول المفاجأة ، بينما تقدّم هو منهم بخطى رشيقة واثقة . نظر الجميع لبعضهم باستغراب ، وقبل أن ينطق عماد محتجًا على طريقة الرجل الغريبة وتدخله في حديثهم دون معرفة سابقة بهم ، مد الرجل يده مصافحًا وهو يرمق كوثر بنظرات باسمة :

- اسمحوا لي على تطفلي ومقاطعتي لحديثكم دون استئذان ، في البداية أعرفكم بنفسي أنا ماجد عبدالله رجل أعمال خليجي، وقد حضرت للبحرين منذ أيام لعقد صفقة تجارية ضخمة مع أحد المستثمرين الأجانب وقد شاءت الصدف أن أكون متواجداً بقربكم في معظم اجتماعاتكم ، وسأكون صادقًا معكم وعمليًا كعادتي وأحكي لكم القصة من بدايتها .

جلس الجميع يستمع غير مصدق لقصة ماجد الذي التفت أخيرًا ليوجه كلامه لكوثر التي جلست طوال الوقت فاغرة الفم وكأنها قد تلقت ضربة قوية على رأسها :

- أعلم أنك تودين خنقي الآن لأني عرضتك لكل هذه المقالب



– ولكن صدقيني كنت فقط أود ان تفهمي خطا تفكيرك في جنس الرجال – لسنا جميعًا أباليس .

– لم اقصد ما سمعته – أعني .

– لا عليك – أنا سعيد بمعرفتك يا ماجد .

ربت عماد على يد ماجد بود ظاهر ، ثم اقترب منه وهمس :

– المهم أخيراً وجدت من أعطى لعدوتي اللدودة والعزيزة كوثر درساً لن تنساه لتدرك أهمية وجود الرجل في حياة كل امرأة

نظر ماجد لكوثر نظرات متفحصة قبل أن يكمل حديثه :

– لقد كنت أظن أيضًا أن النساء كلهن متشابهات حتى قابلت بالصدفة الآنسة كوثر وهي فتاة مرحة وقوية وتستحق كل التقدير.

– أنا – أعني.

لكزت منال في يدها وهي ترد بالنيابة عنها بحماس :

– وكوثر كانت تحمل فكرة خاطئة عن الرجال حتى قابلتك .

– وسأكون سعيدًا إذا قبلت كوثر أن تكون زوجتي .

– بهذه السرعة – أعني أنا لا أعرفك – لقد التقينا للتو .

– ولكني أعرفك جيدًا ومتأكد أنني وجدت أخيرًا الفتاة التي بحثت عنها طوال حياتي – عمومًا هذه بطاقتي وبإمكان عائلتك السؤال عني ، ومن ثم تحديد موعد لاتقدم لك رسميًا .

– ولكن – لكن .

انتزعت منال البطاقة من يد ماجد ، في حين أمسك عماد بيده بقوة وهو يودعه :

– خير – أتمنى لكما كل خير – سنكون حتمًا على اتصال .

وبعد أسابيع كانت كوثر تقف أمامه وهو يمسك بيدها ليلبسها خاتم الخطبة



الماسي وسط زغاريد أهلها وصديقاتها من حولهما وهمس لها بحب ظاهر:

- أتوجك ملكة حياتي - يا كوثر .

نظرت إليه وسط دموعها بإعجاب . فقد بدا وسيمًا للغاية وهو يرتدي البشت الأسود .

فأغمضت عينيها في سعادة وهي تهمس له بخجل :

- تكفيني هذه الكلمات لأكون ملكة الدنيا بأسرها

لقد وجدت حبها المنشود أخيرًا .



المهمة المستحيلة ..



أوقفت زينب سيارتها أمام مبنى الوزارة ، ثم ألقت نظرة سريعة خاطفة عبر المرآة الأمامية وهي تعيد ترتيب حجابها قبل أن تترجل مسرعة .
تمتمت بتوسل وهي تغمض عينيها بقوة :
- أرجو أن تكون أسئلة المقابلة الشخصية سهلة .
وفجأة أحست أنها تكاد تفقد توازنها لولا يد قوية أمسكتها وسمعت صوتًا يحذرها قائلاً :
- انتبهي - أمامك حفرة عميقة .
تسمرت زينب في مكانها وهي تحدق بذعر في الحفرة العميقة التي امتلأت بالمياه الآسنة أمامها ، ثم التفتت خلفها لتشكر منقذها قائلة :
- أشكرك - لا أتصور كيف كنت سأتمكن من الخروج من هذه الحفرة .
- لا عليك - الحمد لله إنك بخير .
- والمياه - صدقني إذا كنت قد نجوت من الحفرة فلا أظنني كنت سأنجو من الغرق في هذه المياه - فأنا لا أجيد السباحة .
قالتها بعفوية ، ثم شعرت بالخجل الشديد عندما ضحك الشاب خلفها ضحكة مجلجلة ولكنه حاول كتم ضحكته عندما لاحظ حرجها وغضبها الشديد من سخريته فرد عليها برصانة ووقار :
- أنت محظوظة اليوم - فأنا سباح ماهر - وحتمًا لن اسمح أن تغرقي في هذه البركة العميقة .
زاد غضب زينب لنبرة صوته الساخرة فاستدارت نحوه محتدة :
- أشكرك مرة أخرى على إنقاذي أيها السباح الأولمبي - أحمد الله على هذه الفرصة النادرة التي جمعتني بك - صدقت أنا اليوم محظوظة جدًا .
ثم تركته وابتعدت بخطى حثيثة وهي تكاد تتميز من الغيظ دون أن تلتفت



إليه حتى دخلت مبنى الوزارة وهي تتصبب عرقًا ، ثم سارت في الممر المؤدي إلى صالة الانتظار .

تفحصت الصالة التي تناثرت في أرجائها الأرائك وقد ازدحمت بالمتقدمين للوظيفة الشاغرة ، ثم لمحت كرسيًا فارغًا بجانب فتاة في مثل عمرها فجلست عليه وهي ما تزال تزفر بضيق .

مسحت جبينها من قطرات العرق التي تناثرت عليها ، ثم التفتت مبتسمة للفتاة التي بجوارها :

– السلام عليكم – هل جئت أيضًا لإجراء المقابلة الشخصية للوظيفة الشاغرة في قسم المحاسبة .

فبادلتها الفتاة بابتسامة ودودة وهي ترد بهدوء :

– أجل .

ثم تلفتت حولها بحذر قبل أن تواصل حديثها :

– يبدو أن أكثر المتقدمين للوظيفة من الرجال ——— لقد سمعت أن المدير نفسه يتولى إجراء المقابلة الشخصية ، وهو حازم جدًا ودقيق في عمله ويخشاه جميع موظفيه . يقولون أنه لا يحب توظيف نساء في قسمه .

نظرت إليها زينب باستنكار ثم سألتها :

– ولماذا هذا التحيّز غير المقبول ضد النساء ؟!!

قربت الفتاة كرسيها منها لئلا يسمعها أحد قبل أن ترد عليها بحذر :

– يقولون أنه يفضل الرجال لأنّ الموظفات يكثرن التغيّب وطلب الإجازات لأتفه الأسباب مما يعطل سير العمل .

فتحت زينب فمها لترد بانفعال واضح لولا أن أطل الحاجب برأسه مناديًا:

– رجاء عثمان .



فقامت الفتاة وهي تردد بعض الآيات القرآنية ثم التفتت إلى زينب قائلة:

– مع السلامة – وحظًا طيبًا .

– ولكِ أيضًا

مضت فترة ليسَت بالقصيرة ، وبدأت زينب تشعر بالقلق والتوتر وهي تفكر في شخصية هذا المدير الغامض عدو النساء ، هل ستنجح في كسب وده وإقناعه بأنها موظفة كفؤ يمكن الاعتماد عليها ، وأنها ليست كغيرها من الموظفات .

تنهدت زينب بضيق عندما تذكرت مدى حاجتها الماسة لهذه الوظيفة ، أغمضت عينيها بخشوع وبدأت تتلو بعض الآيات .

فتح الحاجب الباب ، وخرجت رجاء وهي تحث خطاها إلى الخارج في غضب واضح والتفتت إلى زينب قائلة :

– يبدو أن ما أخبرتك به صحيح – لا فرصة لأمثالنا في هذه الوظيفة .

ثم خرجت بعد أن صفقت الباب خلفها بقوة وسط استغراب الجالسين ودهشتهم .

ابتلعت زينب ريقها بصعوبة وهي تفكر جديًا بالانسحاب بهدوء من القاعة ولكن صوت الحاجب وهو ينادي باسمها ألجمها في مكانها لدقائق ثم قامت وهي تسير بخطوات متعثرة وكأنها ستساق إلى منصة الإعدام .

تقدمت إلى الداخل بخطوات مرتعشة وأجالت ببصرها في محتوياته بنظرة خاطفة ، كانت غرفة واسعة وقد تناثرت قطع الأثاث في جميع أرجائه ببساطة وبألوان متناسقة تنم عن ذوقٍ رفيع .

انتبهت فجأة على صوت يحييها قائلاً :

– يبدو أنه يوم سعدك بالفعل يا آنسة – زينب سالم على ما أعتقد .



كانت أشعة الشمس تسطع بقوة في الغرفة ، فلم تستطع أن ترى محدثها بوضوح في مكانها ، فتقدمت نحوه وقد رسمت على شفتيها ابتسامة عريضة وهي تردد بود :

- أرجو ذلك ف-

وقفت الكلمات في حلقها وهي تحملق في محدثها الجالس خلف مكتب أنيق فخم فصرخت دون وعي منها بحدة :

- أنت - ماذا تفعل هنا ؟!!

كان هو نفس الرجل الذي أنقذها من السقوط في الحفرة العميقة وتركته وهي غاضبة ثم توقفت عن الكلام عندما قرأت الاسم المنقوش على لوحة خشبية أنيقة وضعت أمامه (الأستاذ محمود حسين / مدير قسم المحاسبة).

أدركت حينها أن أملها في الحصول على الوظيفة بات معدومًا بعد هذه البداية غير الموفقة مع مدير القسم ، فتراجعت بضع خطوات إلى الوراء وهي تحاول جاهدة البحث عن كلمات مناسبة للاعتذار قبل أن تغادر الغرفة بلا رجعة :

- أنا - أعني — يبدو أنني تجاوزت حدود اللياقة معك بعد إنقاذك لحياتي - أنا جد آسفة - وإلى اللقاء .

- ألن تجري المقابلة الشخصية للوظيفة التي تقدمت لها ؟ لنرى ما هو مدوّن في ملفك - هممم - زينب سالم بكالوريوس محاسبة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف —— عملت كمحاسبة في عدة شركات وآخرها -آم ممتاز —— ممتاز تقاريرك كلها تتحدث عن كفاءة عالية و التزام عال في العمل .

وقفت زينب منكسة الرأس وهي تتوقع أن يكون الرفض مصيرها كسابقاتها من الفتيات ، ولكنها فوجئت به يقول لها بود أدهشها :



- هل ستجرين المقابلة الشخصية وأنت واقفة ؟!! تفضلي بالجلوس .

تقدمت زينب بحذر نحو مكتبه وجلست بهدوء في المقعد الذي أشار إليه في مواجهته

- أخبريني الحقيقة يا زينب - لماذا كنت تنتقلين باستمرار بين الشركات رغم تقاريرك الممتازة - ولماذا تركت وظيفتك السابقة رغم أنك كنت المرشحة الوحيدة لشغل وظيفة رئيسة القسم فيها بعد خروج رئيسها السابق لوصوله سن التقاعد .

- في الحقيقة ــــ أنا البنت الوحيدة لوالدتي - وقد عانت بعد وفاة والدي لمتاعب صحية خطيرة في القلب - كانت النوبات التي تفاجئها تضطرني للتغيب لأيام لملازمتها في المستشفى مما جعل رؤسائي يضيقون ذرعًا بي رغم تميزي في العمل ــــ

توقفت للحظات وهي تغالب دموعها بصعوبة قبل أن تواصل حديثها :

- صدقني كنت أحاول تعويض فترات تغيبي عن العمل بالسهر بعدها ولأوقات متأخرة من الليل حتى لا أعطل العمل بالقسم.

- طبعًا تعملين إلى وقت متأخر بمقابل علاوة مالية .

- صدقني لقد رفضت أن أطالب بأي مقابل مادي نظير تأخري في العمل رغم حاجتي الشديدة للمال لشراء أدوية أمي الباهظة الثمن .

- ولماذا قدمت استقالتك إذن وأنت كما تقولين تحتاجين للمال لشراء أدوية أمك ؟

- اضطررت لذلك بعد الحادثة المشئومة التي تعرضت لها ؟

- وأي حادثة ؟

- كانت أمي في المستشفى بعد تعرضها لنوبة قوية كادت تودي



بحياتها لولا لطف الله ، وكنت أعمل ليلتها إلى ساعة متأخرة، وبينما أنا منهمكة في جمع بعض بنود إحدى القوائم سمعت صوتًا خفيفًا يصدر من غرفة المدير .

تجمدت في مكاني من شدة الخوف ثم استجمعت شجاعتي وتقدمت من الغرفة وأنا ارتجف .

كان المكان يلفه الهدوء ، فهممت بالعودة إلى مكتبي لظني أنني كنت واهمة ولكن تناهى إلى سمعي صوت شخصين يتناقشان بحدة فأصغيت باهتمام علني أتعرف عليهما أو على سر تواجدهما في المكتب في هذه الساعة المتأخرة .

– هل أنت متأكد أن القوائم سليمة ولا شيء فيها يديننا ؟!!

– قلت لك ألف مرة أنني قد غيرت تواريخ الصرف ، وأسعار الشراء بطريقة يستحيل أن يكشفها أحد .

– والموظفة الجديدة ؟ يقولون أنها دقيقة جدا في عملها ، وقد تكتشف أي خطا يديننا .

– لا تخف – ولا حتى إبليس نفسه يستطيع كشف أي شيء – لا تقلق فهذه ليست أول مرة نعدّل فيها في القوائم .

– لا أدري – أشعر بالقلق .

تراجعت خطوات إلى الوراء بعد أن استطعت رؤية وجهي الرجلين فقد كانا محاسبين يعملان منذ فترة طويلة في الشركة قبل أن يتم توظيفي فيها .

جلست على مكتبي بعد أن أطفأت الأنوار وأنا ارتجف من الخوف، فماذا لو أحسا بوجودي في مكتبي في هذه الساعة المتأخرة ؟ وكيف سأثبت اختلاسهما دون أن ينالني أذى منهما وهل هما يعملان لوحدهما أم هناك جهات عليا خفية تساندهما



وتقتسم معهما الأرباح ؟
أسئلة كثيرة ازدحم بها رأسي ، وجعلني أشعر بدوار رهيب .
وفي صباح اليوم التالي ، حملت الملف الذي كانا يتحدثان عنه إلى غرفة الاجتماعات ، وطلبت من الحاجب ألا يزعجني أو يقاطعني أحد قبل أن أنهي عملي .
بقيت ساعات طويلة وأنا أراجع بدقة متناهية كل بند من بنوده حتى وضعت يدي أخيرًا على موضع التزوير والذي تم تنفيذه بمهارة فائقة يستحيل كشفها لولا خبرتي الطويلة في هذا المجال.
طبعت عدة نسخ من التقرير المزوّر و القوائم الأصلية التي حصلت عليها من قسم المشتريات بعد جهد ، ثم أعددت تقريرًا مفصلاً تضمن كل نقاط الاختلاف بين القائمتين الأصلية والمزورة .
ترددت كثيرًا فيما عزمت عليه وكان الرعب يتملكني في حال كان أفراد مجلس الإدارة في الشركة متورطين في هذه اللعبة فكيف سأتمكن من النجاة بنفسي من هذه الورطة .
تذكرت حينها عم سليمان وهو مراسل قديم تجاوز عمره الستين وقد أحيل للتقاعد عدة مرات ولكن رئيسه كان يعيده للعمل لتعلقه الشديد به لأمانته وإخلاصه ولحاجة عم سليمان الماسة لما يتقاضاه من راتب فقد كان وحيداً بلا أسرة ولا أولاد .
كان عم سليمان يمت بصلة قرابة لأبي الراحل وقد عمل طوال حياته في الشركة ويعرف كل أسرارها وخباياها .
حكيت لعم سليمان القصة كلها واستمع إليها برأس منكس لدقائق ثم تحدّث بصوت حزين :
– أدركت أن هذين الشخصين يخفيان أمرًا ما ، فقد دخلت



عليهما الغرفة عدة مرات أحمل لهما الشاي ولاحظت علامات الخوف والاضطراب واضحة على قسمات وجهيهما .

– ويبدو أن شكك كان في محله يا عم سليمان ولديّ الدليل القاطع على ذلك ولكن ما العمل الآن ؟

– لا عليك يا ابنتي – لقد خدمت طوال حياتي في هذه الشركة ولن اسمح لأي مخلوق مهما بلغت قوته ومركزه أن يتعرض لها بسوء .

– وماذا تنوي أن تفعل ؟

– أنا على علاقة وطيدة برئيس مجلس الإدارة فيها ، فقد خدمت والده المرحوم لسنوات طويلة وهو واثق من ولائي وإخلاصي للشركة – أعطيني التقارير ودعي الأمر لي .

مرت أيام لم ألمس أي تطور في القضية حتى ظننت أن عم سليمان قد فشل في إقناع رئيس مجلس الإدارة بجدية وخطورة القضية ، ولم أدرك حينها أنه وبالتعاون مع المباحث العامة قد نصبوا فخًا لهذين الشريرين سرعان ما وقعا فيه وتم إلقاء القبض عليهما وإيداعهما السجن .

– قصة عجيبة وكأنني أشاهد فيلمًا بوليسيًا ، ولكن هذا لم يجب عن سؤالي لماذا تركت العمل في هذه الشركة ؟

– لقد كادت أمي تصاب بنوبة قلبية عندما علمت بكشفي لتلاعب هذين الشقين وقد أقسمت عليّ أن أترك العمل في الشركة لخوفها من انتقامهما .

– ورؤسائك هل قبلوا استقالتك بهذه السهولة رغم الخدمة الجليلة التي قدمتها للشركة .

– بالطبع لا ، لقد حاولوا جاهدين إثنائي عن تقديم طلب الاستقالة بل ووعدوني بترقية كبيرة ، ولكن القلق الكبير الذي كنت أراه



في عيني أمي كلما خرجت للذهاب إلى عملي ودموعها التي لم تتوقف للحظة منذ علمت بالموضوع جعلني أفكر جادة في ترك العمل بالشركة .

عاد محمود لقراءة التقارير لفترة ، ثم رفع رأسه وابتسم بود وهو يقول :

– إلى اللقاء – سنتصل بك عما قريب .

شكرته وغادرت الغرفة وهي تشعر بإحباط كبير

– (حتما هذه الوظيفة ليست من نصيبي بعد أن علم بظروف والدتي الصحية)

مضت أيام انشغلت فيه زينب برعاية أمها بعد خروجها من المستشفى ، كانت قد سقتها للتو دواءها وجلست بجوارها حتى راحت في سبات عميق ، ثم تسللت إلى المطبخ لتستكمل ما بدأته من تغليف خزانة المطبخ حين سمعت صوت الهاتف .

– السلام عليكم .

– وعليكم السلام .

– أنا محمود حسين ، وقد اتصلت بك شخصيًا لأزف لك خبر حصولك على الوظيفة الشاغرة .

فغرت سعاد فمها لفترة غير مصدقة :

– آنسة سعاد — هل ما زلت معي على الخط ؟

– أجل – أجل – أنا آسفة .

– يمكنك الحضور في الغد لاستكمال الإجراءات

– ولكني أحذرك ستكونين تحت رئاستي المباشرة وأنا كما يعرف الجميع عني صارم جدًا في العمل ولا أسمح بأي تهاون أو تلاعب .



- اطمئن - فلن تجد في عملي أي تهاون بإذن الله .
- إذن أراك في الغد --- إلى اللقاء .
- إلى اللقاء .

ثم وضعت السماعة وهي تفكر بقلق هل ستستطيع النجاح في هذه المهمة المستحيلة - من يدري .





لقاء مع الماضي ..

وقف أحمد عند موقف الانتظار، وقد وضع يديه في جيب سترته يحتمي بها من البرد، وقد اعتمر قبعة صوفية غطت رأسه وأذنيه بإحكام.
كانت الشمس قد بدأت تميل نحو المغيب، وقد خلا الطريق من المارة تقريبًا.
لم يكن قد اعتاد على ركوب الحافلة في تنقلاته، ولكن تعطل سيارته المفاجئ أثناء عودته من عمله اضطره لترك سيارته عند أحد المباني القديمة ريثما يصل لبيته ويتسنى له ترتيب من يساعده على إيصال سيارته للورشة. تقدمت نحوه سيدة مسنة ثم وقفت بجواره تنتظر الحافلة، ثم انضم إليهما شابان في مقتبل العمر كانا يتجاذبان حديثًا صاخبًا حول إحدى مباريات كرة القدم التي حضراها مضت لحظات بطيئة وهم ينتظرون، وفجأة بدأ المطر يتساقط.
احتمى الواقفون بأحد الأشجار وهم يرتجفون وبدأت العجوز تهمهم بغضب:

– ليسامحك الله يا راشد– طلبت منك أن تقلني إلى المستشفى فاعتذرت بمشاغلك – هل هي أهم من أمك العجوز؟

ثم زفرت بضيق قائلة:

– أكاد أتجمد من البرد – لقد تبللت ثيابي.

أشفق أحمد عليها كثيرًا وود لو يخلع معطفه ليحمي جسدها النحيل المبتل من البرد.
تذكر المرحومة والدته، وحمد الله انه لم يكن كهذا الراشد الجاحد قط.
أخيرًا اقترب الباص فأفسح أحمد المجال للسيدة المسنة لتصعد قبله إلى الحافلة، ثم أمسك بيدها عندما لاحظ أنها كادت تفقد توازنها أثناء صعودها حتى أجلسها برفق على أول كرسي صادفهما، ابتسمت له ابتسامة عذبة وهي تدعو له:

– ليجازيك الله خيرًا يا ولدي – ليطيل الله عمرك.



جلس أحمد في مقعده، وبدأت الحافلة في السير، تلفت أحمد بعد مضي فترة وهو يتفحص وجوه الركاب .

لم يكن في الحافلة سوى بضع أشخاص جلسوا بصورة متفرقة في الحافلة، ولكن إحدى السيدات استرعت انتباهه .

كانت السيدة في الأربعين من عمرها ، وقد بدا وجهها مألوفًا لديه بصورة غريبة رغم التجاعيد والشحوب الذي كان يعلو وجهها .

تفرس فيها للحظات ، ثم انتقل ببصره إلى طفلها الذي جلس بجوارها بهدوء وهو يلهو بطائرة حملها بين يديه .

فتش في ذاكرته طويلاً ، وفجأة تذكر :

(معقولة – بعد هذه السنين يراها من جديد – إنها زينب ابنة جيرانهم في الحي القديم وصديقة طفولته)

لا يدري على وجه التحديد كم مضي من الزمن منذ رآها آخر مرة .

سرح بخياله إلى تلك الحقبة السعيدة من حياته ، كانا طفلين يلهوان ببراءة في الحي وكانا لا يفترقان إلا عند النوم حين تسحبها أمها من يدها وهي تزمجر:

– زينب —— ألم أطالبك مرارًا أن تعودي إلى البيت حالما يحل المساء ؟ ألا تشبعين من اللعب مع أحمد أبدًا ؟

فتسير زينب خلفها صاغرة وهي تمسك في قبضتها الصغيرة بضع حبات من الخرز الزجاجية تلهو بها .

تذكر حينها حين مرت الأيام وبلغت زينب التاسعة من عمرها فمنعتها أمها من مغادرة المنزل واللعب مع الأولاد ، وكان يصادفها أحيانا تسير برفقة أمها ، فيكتفيان بتبادل تحيات مقتضبة تقتضيها أصول اللياقة بحكم كونهم جيران .

كم كان قلبه يخفق بقوة حين بلغا مبلغ الشباب حين يلمحها عائدة من



المدرسة برفقة صديقاتها وقد ضمت حقيبتها إلى صدرها .
لقد غدت زينب صبية رائعة الجمال بعينيها الواسعتين وبشرتها البيضاء المائلة للحمرة وقوامها الممشوق ، وقد عقدت شعرها في ضفيرتين طويلتين تتمايل خلفها كلما سارت .
لم ينس قط الدموع الساخنة التي ذرفها وهو يراقبهم ينقلون أثاث بيتهم بعد أن باع والدها بيتهم القديم في حيهم وانتقلوا لمنطقة أخرى يجهلها .
لقد شعر بعد انتقالهم بفراغ كبير ، وظل يذكرها بحسرة وحزن فترة ليست بالقصيرة .
تلتفت ثانية إلى الخلف ليسترق نظرة أخرى لها :
(ما زالت تحتفظ بشيء من جمال الماضي ونضارته) ثم نقل بصره إلى طفلها ، لقد ورث عن والدته عيناها الواسعتان وبياض بشرتها .
وصلت الحافلة إلى المحطة التالية ، فانتصبت زينب واقفة وهي تمسك بيد طفلها واستعدت للنزول من الحافلة .
مرا بجواره وحاول الطفل أن يتملص من قبضة يده فهتفت قائلة :
– تمهل يا أحمد – لنعط المجال لينزل ركاب المقاعد الأمامية أولا يا حبيبي –
شعر أحمد بفرحة غامرة فقد أسمت زينب طفلها باسمه ، وما يدريه لعلها كانت تحمل له في الخفاء مشاعر الود والحب التي حملها لها لسنوات.
ابتعدت الحافلة مصدرة هديرًا ، في حين تابع أحمد بعينيه زينب وهي تسير مع طفلها حتى غابت عن بصره فجلس ساهمًا وهو يهمهم بصوت حزين :
– (وداعًا يا زينب – وداعًا يا صديقة طفولتي وحب صباي) .



سكــون
في العاصفة..



تقلبت أمل في فراشها عدة مرات ثم زفرت بضيق قائلة :

- أف ---- عاودتني نوبة ألم جديدة .

جلست بتثاقل وأسندت ظهرها إلى المخدة خلفها ، أغمضت عينيها بقوة وهي تستجمع كل قواها لتحتمل نوبة الألم الجديدة هذه .

- لم أعد أستطيع تحمل المزيد منه ------ الألم فوق احتمالي .

ضغطت على الزر الموضوع قرب سريرها لبرهة ---- ثم عادت للاستلقاء بإعياء واضح ، وبعد لحظات مضت عليها كالدهر أطل وجه الممرضة وهي تحاول جاهدة رسم ابتسامة مطمئنة :

- هل عاودتك نوبة جديدة من الألم .

- أجل - هذه ثالث نوبة منذ آخر إبرة مهدئة أخذتها منذ ربع ساعة تقريبًا .

- آسفة يا أمل لا أستطيع إعطائك إبرة أخرى قبل مرور ساعة .

ألقت أمل رأسها في استسلام مرير قائلة :

- لا عليك - سأحتمل الألم لحين موعد الإبرة المهدئة الثانية - لقد أصبحت وهذا الألم اللعين صديقان حميمان لا نفترق ليلا أو نها ر .

ابتسمت الممرضة مشجعة وهي تداري بصعوبة دمعة ساخنة انزلقت رغمًا عنها على خدها ، فانسحبت من الغرفة سريعًا متعذرة بانشغالها بأمر هام قائلة :

- عليّ الاطمئنان على سير عمل جهاز تنظيم ضربات القلب لمريضة في الحجرة المجاورة ----

أغلقت الباب خلفها وهي تغمض عينيها في حزن دفين :

(ياللمسكينة-أنها تعيش ساعاتها الأخيرة - لقد استفحل المرض



الخبيث بكل جسدها ليتني استطيع جعلها تقضيه بدون ألم) .
حثت خطاها نحو مكتب الاستقبال وهمست للممرضة فاتن :
– هل أبلغتم أهل المريضة أمل بضرورة حضورهم – لقد أوقف الطبيب علاجها بعد أن فشل في السيطرة على انتشار المرض في جسدها وأوصانا بالاكتفاء بالإبر المهدئة صحيح الأعمار بيد الله ولكن الطبيب يعتقد أنه ليس أمامها وقت طويل .
نظرت فاتن نحوها بنظرات حزينة وهي ترد بأسى :
– لقد أبلغتهم ولكن يبدو أنهم يواجهون صعوبة في الوصول بسبب العاصفة.
–آه —— نسيت أن البلاد تشهد عاصفة منذ ساعات – يقولون أن مستوى الرؤية تدنى في الشوارع إلى معدلات خطيرة —— لقد خلت الشوارع تقريبًا من السيارات .
– لقد أعلنت جميع المراكز والمستشفيات حالة الطوارئ تحسبًا للحوادث المرورية التي يتضاعف عددها في مثل هذه الظروف.
– لقد تم تأجيل كل الرحلات الجوية المغادرة والقادمة للمملكة
– المطار في حالة شلل تام .
– بالطبع فنحن لم نشهد مثل هذا الجو المرعب من قبل .
– أرجو أن يتمكن أهل المريضة الوصول في الوقت المناسب رغم الطقس الرديء هذا
أتعلمين دخلت صباح هذا اليوم عليها ، فوجدتها تحمل صور أطفالها تنظر إليهم بعيون دامعة ، ثم ضمتها إلى صدرها وهي تردد بأسي :
– أطفالي – كم كنت أتمنى أن يطول بي العمر لأراكم تكبرون وتتخرجون – لن يمهلني القدر لأشهد زواجكم وأحمل بين يديّ



أطفالكم .

مسحت فاتن دموعها وهي تضيف :

- ياله من موقف محزن - تخيلت نفسي مكانها ولم استطع سوى ضمها إلى صدري وبكينا سويًا طويلاً .

- هل صارحها الطبيب بحالتها .

-نعم وبعد إلحاح شديد منها -لقد لاحظت أننا توقفنا عن إخضاعها لجلسات العلاج الكيماوي منذ فترة .

- طبعًا هي على دراية تامة بتطور مرضها وبمراحل العلاج المناسبة لكل فترة منه ، هل تذكرين -

وسرحت ببصرها وهي تتذكر فترة دراستهن بكلية العلوم الصحية ، وكانت أمل زميلتهم والأولى بامتياز في كل عام ، جمعتهن صداقة وطيدة فقد كانت أمل رغم تفوقها الدراسي تتميز بأخلاق عالية وتواضع قلما يجده المرء فيمن يمتلك ذكاءها تتذكر بشيء من الحزن اجتماعهن في الكافتيريا ما بين المحاضرات ، لم تكن أمل تترك فرصة إلا وشغلتها في قراءة الروايات العاطفية التي كانت تعشقها وكثيرًا ما تحملت سخريتهن وتعليقاتهن اللاذعة بابتسامة هادئة :

- -كيف تستطيعين الجمع بين التمريض والأدب فهما عالمان مختلفان .

- أنتن مخطآت - فمهنة التمريض مهنة إنسانية راقية تستدعي فيمن يمتهنها أن يمتلك قلبًا نابضًا بالحب والحنان وحب التضحية للآخرين - نحن لا نتعامل مع ضمادات وإبر وأدوية فقط - بل عملنا مع فئة من البشر تعاني وتتألم وتحتاج البسمة الحانية واليد العطوفة أكثر من حاجتها لأي شيء آخر .

- وهل هذه الروايات التي لا تفارقك في أي مكان ستعلمك



كل ذلك؟
- بالطبع فهذه الروايات تنقي الشعور وتصفي العاطفة وتجعلنا نعيش في عالم خاص يختلف عن عالمنا الزاخر بالحروب والدمار وتبلد المشاعر والأحاسيس
- يا لك من فيلسوفة --- هيا فقد حان وقت محاضرة الدكتور ماهر --- وأنت تعلمين جيدًا حرصه ودقته الشديدة في المواعيد .
ولكنها ورغم كل هذه المشاعر الفياضة تجاه الآخرين أغفلت الجانب الروحاني في حياتها ، وكانت تؤمن أن عمل الخير وحب الناس بقلب صاف يغنيانها عن أداء الصلاة أو لبس الحجاب .
تتذكر المرات العديدة التي جلستا فيه تتناقشان في هذا الموضوع وعندما يتطور الجدال إلى درجة الصراخ تنهي أمل النقاش بابتسامة وبعبارتها المعهودة :
- أن علاقة العبد بربه أكبر من بضع ركعات يؤديها دون تدبر -
- ولكنك مكلفة بهذه الركعات لا عذر في العالم يعفيك منها إلا الموت - فكري يا أمل فحياة الإنسان غير دائمة -
كانت تهز كتفيها وتعود لمواصلة قراءة ما بدأته من الرواية .
تسللت فاتن إلى الغرفة بخفة ، وهي تراقب تنفس أمل بقلب واجف ، ثم تنفست الصعداء عندما تقلبت أمل لتنام على ظهرها فانسلت خارجة دون أن تشعر بها .
كانت أمل تحملق في السقف وعلى شفتيها ابتسامة هادئة رغم آلامها المبرحة التي لا يحتملها بشر وهي تتمتم ببعض عبارات التسبيح ، ثم انقبضت أسارير وجهها فجأة وهي تغالب نوبة ألم جديدة .
عادت لتتقلب في سريرها وهي تدعو الله بقلب خاشع :
- يا رب تقبّل توبتي - يا رب تجاوز عن سيئاتي وتقبلني في



واسع رحمتك بقبول حسن –

ثم راحت تشهق بعنف وهي تتذكر أنها وفي غمرة انشغالها بتفوقها الدراسي ثم عملها بعد التخرج أغفلت أمور دينها فلم تكن تواظب على الصلاة ، وكانت تجد صعوبة شديدة في صيام شهر رمضان ، لذا كانت تغافل والدتها لتدس بعض اللقيمات في فمها وهي تساعدها في تجهيز مائدة الإفطار بحجة أن الله لا يحتاج لجوعها كدليل على طاعتها وحبها له .

انزلقت دمعة ساخنة على خدها فمسحتها بكفها وهي تنظر إلى السقف بتضرع :

– يا رب – هل قبلت توبتي ؟!!

حاولت الجلوس رغم آلامها ، أسندت رأسها بوهن ، ابتسمت فجأة عندما تذكرت صديقتها رباب .

لقد جاهدت رباب معها لسنين طويلة حتى استطاعت إقناعها للعودة إلى صلاتها والانتظام في تأديته

– كم اشتاق لك الآن يا رباب – أتمنى أن أشكرك على كل ما قدمتيه لي — لكنك الآن بعيدة وتفصلني عنك آلاف الكيلومترات منذ غادرت البلاد لمرافقة زوجك في دراسته بالخارج – سأظل مدينة لك بالكثير وسأحمل حبك وصداقتك الصافية في قلبي للأبد .

أغمضت عينيها بقوة وهي تشهق من شدة الألم :

– ليت لدي متسع من الوقت لأعتذر وأطلب الصفح من جميع من أسأت لهم في حياتي .

شخصت ببصرها بعيدا فأطلت وجوه عابسة وأخرى باسمة ، ودت لو تستطيع معانقتهم جميعًا :

– أحبكم جميعًا فاغفروا لي أي إساءة بدرت مني نحوكم .



نظرت صوب النافذة ، فوجدت السماء حمراء ، والرياح تعصف بشدة ، بينما أخذت أغصان الأشجار تتمايل بشدة .

- أنها العاصفة - لقد بدأت تشتد .

تذكرت أطفالها وزوجها ، فأمسكت بهاتفها المحمول ، وأدارت الرقم فجاءها صوت صغيرها محمود باكيًا :

- ماما ـــــ أين أنت ؟- متى ستعودين ؟

تسارعت دقات قلبها، وهي تغالب دموعها بصعوبة ابتلعت ريقها مرارًا قبل أن ترد:

- قريبًا يا ماما - قريبًا - هل أنتم بخير؟ أين والدك وبقية أخوتك؟

- أخوتي ما زالوا نائمين ، ووالدي خرج منذ فترة بعد أن تكلم في الهاتف - لقد خرج دون أن يرتدي غترته .

- وهل ترككم لوحدكم ؟

- لا - جدتي معنا - ولكنها تبكي منذ أن غادر والدي البيت .

- دعني أكلمها يا حبيبي .

- جدتي - جدتي - أمي على الهاتف .

ثم رمى السماعة قبل أن تودعه أمل :

- ألو - أمي - كيف حالك ؟ لماذا تبكين ؟ هل حدث مكروه ؟

- كيف حالك أنت يا حبيبتي - لقد خرج محمود على عجل وأخبرني أنه قادم لزيارتك - حاولت مرافقته ولكنه أصر أن أبقى لرعاية الأطفال ويقول أنه يخشى أن يخرجوا في هذا الجو العاصف .

- فعلاً يا أمي - وجودك معهم يطمئنني كثيرًا - لا تخافي أنا بخير - أشعر بتحسن كبير هذا اليوم .

عضت بقوة على مخدتها حتى تكتم صرخة ألم حادة كادت تطلقها :



- أمل - هل ما زلت على الخط ؟
- نعم - ما زلت معك - أمي أنا أحبك كثيرًا --- أريدك أن تسامحيني إذا أخطأت في حقك يومًا .
- وأنا أحبك يا أمل فلم يعد لي في الدنيا سواك بعد وفاة والدك - أرجو أن تتعافي سريعًا لنعود معًا كما كنا دائمًا - محمود دائم البكاء والسؤال عنك - أما بقية أولادك فما عادوا كما كانوا في السابق - هم يلازمون غرفهم على الدوام - ولا يحبون الخروج أو مشاهدة التلفاز .

ابتلعت أمل ريقها بصعوبة وهي تغالب نوبة ألم جديدة وردت بصوت متحشرج :

- أمي - أعلم أن غيابي عنهم هذه الفترة الطويلة قد أثر فيهم وهذا يقتلني في اليوم ألف مرة - أمي عديني أن تعوضيهم وأن تكوني لهم كما كنت لي دائمًا الأم الحنون --- عديني يا أمي .
- طبعًا يا حبيبتي - أنت تعلمين مقدار تعلقي بهم فهم أبناء الغالية أمل ، ولكني واثقة أنك ستعودين سريعًا لهم - ستعودين لأطفالك وبيتك بالسلامة .
- أرجو ذلك - أحبك أمي وسأظل أحبك على الدوام - مع السلامة .
- مع السلامة ---- لا تقلقي - وسأحضر لزيارتك هذا المساء.

أغمضت أمل عينيها بعمق وهي تشعر أن هذه آخر كلمة تسمعها من أمها :

- أمي - أريد التحدث مع الأولاد - أرجوك .
- هم نائمون - سأصطحبهم معي لزيارتك في المساء - لقد وعدتهم



بذلك في الأمس .
- لا - أرجوك - أريد سماع صوتهم الآن .
- حاضر - حاضر .
مضت دقائق كالدهر حتى جاءها صوت أحمد متثاقلاً :
- أمي - كيف حالك ؟ لقد اتفقت مع جدتي أن نحضر لزيارتك هذا المساء .
- أعلم يا حبيبي - ولكن العاصفة قد بدأت وأخشى أن يتعذر عليكم الحضور بسببها - أحمد أوصيك بأخوتك ووالدك - كن عاقلاً كما كنت على الدوام - وأطع كلام جدتك فهي ستتولى رعايتكم من بعدي - أقصد طوال فترة تواجدي في المستشفى - انتبه لدروسك لتصبح طبيبًا كما حلمت دائمًا - أحبك كثيرًا .
- وأنا أيضا - فقط عودي للبيت سريعًا - نحن نفتقد وجودك كثيرًا.
- سأعود حالما يسمح الطبيب - دعني أكلم شيخة .
- هاهي .
- ألو - ماما - وحشتني - متى تعودين ؟
- لا تبكي يا حبيبتي فأنت الآن كبيرة ويمكنك الاعتناء بنفسك وأخوتك كما علمتك أتذكرين كنت تلازمينني على الدوام في المطبخ وتحرصين على إتقان كل الأصناف التي أعدها لكم .
- نعم - ولكني أريد أن نتناول الطعام الذي كنت تعدينه لنا - جدتي تعد طعامًا لذيذا ولكنه ليس بلذة ما تعدينه أنت .
- تذكري أن تؤدي الصلاة في أوقاتها ، وحثي أخوتك على ذلك
- - حاضر يا أمي ، أراك هذا المساء .
- أتمنى ذلك يا حبيبتي - أحبك كثيرًا .



أغلقت سماعة الهاتف ، ثم دفنت وجهها في الوسادة تنشج بقوة ، ثم تذكرت زوجها الذي خرج على عجل في هذا الجو العاصف .
أمسكت هاتفها المحمول ، حاولت الاتصال به عدة مرات دون جدوى ، يبدو أن العاصفة قد أثرت على خطوط الهاتف .
فجأة انتابتها موجة ألم قوية فألقت رأسها إلى الخلف وجحظت عيناها وهي تحاول جاهدة التقاط أنفاسها المتلاحقة ، ثم بدأت الصور تتلاشى من أمامها .
أطلت الممرضة فاتن لتطمئن عليها ، بدت أمل شاحبة وهي تحاول جاهدة فتح عينيها – ثم أشارت لها أن تقترب .
همست لها بصعوبة قائلة :

– إذا وصل زوجي أخبريه إنني أحبه وأولاده كثيرًا – أوصيه أن يرعى أولادنا ويحسن تربيتهم ليكونوا كما حلمنا سويًا .

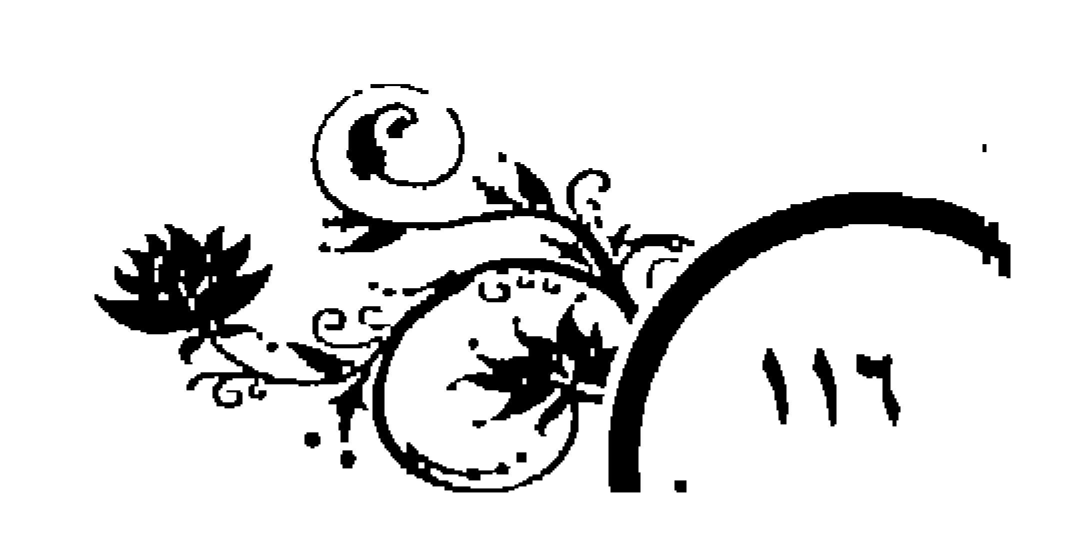
فهتفت فاتن في رجاء وهي تحاول جاهدة تدليك يدها قبل أن تقيس لها النبض

– تشجعي يا أمل — أنت قوية – ستكونين بخير صدقيني .

توقفت عن الكلام وهي تراقب أمل ترفع سبابتها وتنطق بالشهادتين بصعوبة بالغة ثم شهقت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عذبة .
هرعت فاتن إليها لتجس نبضها ثم صرخت في هلع :

– – مريم – مريم – اتصلي بفريق الطوارئ – قلب المريضة قد توقف عن العمل .

حضر فريق الطوارئ على عجل ، ولكن بعد فوات الأوان فقد سكن جسدها تمامًا .
وقف زوجها الذي وصل ولكن بعد أن أعلن فريق الطوارئ رسميًا عن وفاتها ينظر إليها بعينين دامعتين وقد أمسك بيدها الباردة كالثلج بقوة وكأنه يرجوها أن تبقى بينما كانت العاصفة تزمجر بالخارج . كان سكونًا وسط العاصفة .



لحظة غادرة ..



لوّحت فاطمة بسعادة إلى أطفالها وهم يستقلون حافلة المدرسة لأول مرة من أمام بيتهم الجديد الذي انتقلوا إليه حديثًا منذ أيام ، ثم عادت أدراجها إلى الداخل لتبدأ في استكمال ترتيب الملابس في خزانة الأولاد .

وقفت للحظات تنظر بإعياء إلى صفوف من الصناديق المكدسة في زاوية من الصالة وتمتمت في استسلام :

– هذه الصناديق تحتاج لأسابيع حتى استكمل إفراغها وترتيب ما بداخلها

تقدمت من إحداها وقرأت ما دونته على الشريط اللاصق (كتب وأشرطة) :

– هذا الصندوق خاص بالمكتبة .

ثم انتقلت إلى الصندوق الثاني وقرأت ما عليه (صور وألبومات عائلية) فابتسمت وهي تجذبه جانبًا وتحاول إزالة الشريط اللاصق الذي ثبتته حوله بإحكام ، وبعد عدة محاولات ، تناولت أول ألبوم صور وقع تحت يدها ، ثم افترشت الأرض وهي تقلب صفحاته في حنان :

– ياه – هذا ألبوم خاص بعلي – كم يبدو ظريفا .

تأملت فاطمة صورة علي وهو ما زال طفلاً في المهد ، لم يكن بوسامته الحالية ولكنها كانت تراه حينها أجمل طفل في العالم ، فقد كان طفلهما البكر، ضحكت من الأعماق على صورة له في الثانية من عمره وقد اعتلى طاولة في غرفة الجلوس ، وقد غطت طبقات من اللبن الزبادي وجهه فبدا كمهرج مضحك ، وهذه صورة له وهو يستحم في حوضه المفضل الصغير وقد أحاطت به مجموعته من الحيوانات البلاستيكية ، تذكرت ضاحكة كم طالبها بتمزيق هذه الصور العارية له قبل أن تقع في يد أخوته فلا يسلم بعدها من تعليقاتهم الساخرة فترد عليه بكل هدوء :

– حبيبي – هذه فترة هامة وسعيدة في حياتك ولا أريد أن تحرمني



من استرجاعها بين الحين والآخر - واطمئن سأبقي هذه الصور بعيدة عن متناول أخوتك .

انتقلت إلى صندوق آخر لتتفقد محتوياته ثم ابتسمت في سعادة وهي تتأمل البيت من حولها غير مصدقة :

- هل أنا حقًا في بيتي الجديد ؟!!

لقد مضت سنوات طويلة وهما يستكملان مراحل بنائه وتجهيزه .

تذكر أنها في لحظة يأست من نجاحهما في إتمام بنائه بعد أن أخبرهما المهندس أن مشاكل جديدة طرأت على تمديدات أسلاك الكهرباء الرئيسة ، مما أوقف العمل في المنزل لفترة ليست قصيرة لحين إعادة وضع خطة بديلة للتمديدات ، صرخت حينها بيأس :

- ست سنوات لبناء منزل - لم أسمع قط أن أحدهم بني بيته في هذه الفترة - يبدو أن هذا البيت لن يكتمل إلا بعد موتي - حينها ستنتقل إليه مع زوجتك الجديدة .

- معاذ الله - أطال الله في عمرك لننعم سويًا في العيش فيه مع أطفالنا .

تناهى إلى سمعها صوت بكاء طفلتها الصغيرة مريم ، فأسرعت إليها تهدهدها حتى عادت لنومها ، فعادت لتفريغ مجموعة جديدة من الصناديق.

مضت فترة وهي مستغرقة في جرد المحتويات ثم سمعت صوت رنين الهاتف ، بحثت حولها جاهدة وهي تحاول تذكر أين وضعته آخر مرة ، ثم تتبعت بعد فشلها في العثور عليه أسلاكه المتشابكة حتى عثرت عليه تحت كومة من الستائر المطوية :

- ألو - أهلاً إبراهيم - لقد خرجت باكرًا إلى عملك دون أن توقظني .

- لقد سهرت البارحة طويلاً في إعادة ترتيب الغرف . ثم ظللت



ساهرة بقية الليل مع الصغيرة مريم - أخبريني لماذا كانت تبكي طوال الليل ؟

- يبدو ان ألم أذنها قد عاودها ثانية - لابد من مراجعة طبيبها .

- حسنًا سأصحبها معك اليوم بعد عودتي من العمل إلى الطبيب .

- آه تذكرت لا تنسي يا حبيبتي أن تعيدي مفتاح شقتنا القديمة لوزارة الإسكان لقد وعدت الموظف المسؤول بذلك بالأمس.

- أعلم يا عزيزي - لقد أتفقت مع أختي عائشة أن أعهد إليها برعاية الصغيرة ريثما أسلم المفتاح - سنتناول طعام الغداء عندهم اليوم .

- حسنًا ---- سأكون عندكم حوالي الساعة الرابعة بعد انتهاء دوام عملي - لا تنسي أن تحتفظي لي بنصيبي من الغداء - أنت تعلمين أن طبخ عائشة لا يعلى عليه -

- ماذا تعني ؟ --- هل تفضل طهوها على طهوي ؟

- لا يا حبيبتي - ولكنك لا تجيدين مثلها طهو البرياني .

- اعترف - فعائشة بارعة في طهوه - تذكرني بالوالدة يرحمها الله.

- حسنًا - أراك عندها الساعة الرابعة - إلى اللقاء .

- إلى اللقاء .

بعد ساعة انتهت فاطمة من تجهيز الصغيرة ، ثم جهزت ما تحتاجه في حقيبة شدت الصغيرة إلى كرسيها الخاص بالسيارة بعد أن تأكدت من تثبيت الحزام من حولها ، ثم قادت سيارتها متجهة لبيت أختها الكبرى عائشة الذي لم يكن يبعد كثيرًا عن بيتها الجديد .

- سأعود حالما أنهي إجراءات تسليم مفتاح الشقة القديمة - إلى اللقاء.



لوّحت بيدها لأختها عائشة التي وقفت باسمة عند مدخل بيتها وهي تحمل الصغيرة مريم لصدرها في حنان :

– يا لحنانك يا عائشة – رغم حرمانك من الذرية ولكنك اعتبرتيني وأخوتي أبناؤك وخاصة بعد وفاة والدتنا المفاجئ ونحن جميعًا ما زلنا صغار .

نظرت بحب كبير إليهما ، ثم شعرت بغصة في قلبها ، وحزن شديد لم تعرف سببه نظرت ثانية إلى ابنتها التي وضعت رأسها على صدر خالتها بهدوء غريب فأوقفت سيارتها فجأة وسط دهشة أختها الشديدة ونزلت وهي تعدو تجاههما :

– خير يا فاطمة – هل نسيت شيء ؟!!

– لا – فقد كانت مريم البارحة تشكو من نوبة ألم في أذنها من جديد – أردت الاطمئنان على درجة حرارتها .

ابتسمت عائشة في حنان لها وهي تعلق :

– لا تخافي يا فاطمة سأعتني بها جيداً كما أعتنيت بكم جميعًا وأنتم صغار – هل تذكرين؟

– بالطبع يا عائشة – أنني لا أذكر أمي جيداً كما أذكرك – لقد كنت على الدوام أمنا – وستكونين أم أولادنا أيضًا – أحبك يا عائشة .

تعانقتا في حنان واضح ، ثم طبعت فاطمة قبلة خاطفة على خد صغيرتها مريم – سارت لبضع خطوات ثم عادت ثانية لتنتزع مريم من أحضان أختها وسط دموعها التي انهمرت رغمًا عنها :

– فاطمة – لماذا تتصرفين هكذااليوم ؟!! هل تعانين من شيئ ؟ هل الصغيرة بخير فعلاً يا فاطمة ؟ أخبريني فقد بدأت أشعر بالقلق عليكما سويًا .



- صدقيني نحن جميعًا بخير-لا أدري لماذا أنا عاطفية لهذه الدرجة اليوم - أشعر أن الدموع تنهمر من عيني رغمًا عني - يبدو أنه بسبب الارهاق والتعب .

- لا عليك — سنذهب سويًا لبيتك بعد عودة إبراهيم لنستكمل ما تبقى من تفريغ الصناديق وترتيب محتويات الغرف.

- حسنًا إلى اللقاء .

- كوني منتبهة اثناء سياقتك - لا تتعجلي العودة فمريم في أمان معي .

- أعلم - أنا واثقة من ذلك .

صعدت فاطمة إلى سيارتها بعد أن ألقت نظرة خاطفة على ساعتها :

- أف - لقد تأخرت كثيرًا - لا بد أن أسرع .

انطلقت بسيارتها بسرعة كبيرة وكأنها في سباق مع الزمن :

- آه تذكرت - لا بد أن أعاود الاتصال بمحل المفروشات ليرسلوا لي في الغد عاملاً لتركيب الستائر - كم رقمهم - آه لقد وضعت الرقم في جيب حقيبتي .

انحنت للحظات وهي تحاول فتح سحاب الحقيبة ، ثم القت نظرة سريعة على الطريق أمامها قبل أن تعاود البحث جاهدة عن الرقم :

- أه - هاهو - أيها رقم محل المفروشات ؟

بحثت ببصرها بين الأرقام المتناثرة التي دونتها على عجل وسط ورقة صغيرة ولم تنتبه حينها إلى تجاوزها خط مسارها بصورة مفاجئة أثناء انعطاف شاحنة نفايات ضخمة من يسارها ، فاصطدمت بها رغم محاولات سائقها اليائسة لتفاديها ، ثم هوت الشاحنة على سيارتها بعد أن دارت حول نفسها محدثة صوتًا رهيبًا .

تطايرت من حولها شظايا من الزجاج استقر بعضها في وجهها ورقبتها،



فسالت دماء غزيرة لتغطي وجهها ، ثم أحست بسقف السيارة يهوي من فوقها ليطبق على رأسها وجسدها فشعرت بألم شديد، وبدأت الدنيا تظلم من حولها ، وبخدر بارد يسري بالتدريج على كافة أنحاء جسدها المغطى بالدماء .

لم تعد تشعر بشيء من حولها ، وتلاشت شيئًا فشيئًا أصوات من حولها وكأنها تسبح عميقًا في بحر مظلم .

لقد توقف الزمن من حولها ، ومر شريط سريع من الصور أمام ناظريها لزوجها يبتسم لها في حب وهو ينقل معها الحقائب والصناديق أثناء انتقالهما إلى بيتهما الجديد وقد علا وجهه الغبار ، ثم أطفالها وقد وقفوا أمامها يلوحون لها قبل صعودهم حافلة المدرسة ، وأختها عائشة تلوح لها في حب وقد ضمت الصغيرة مريم إلى صدرها قبل أن تسبح في ظلمة قاتمة وتلاشى فجأة كل شيء ، فأحست أنها النهاية.

جاهدت لترفع سبابتها ورددت في خشوع :

(أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله) ثم أغمضت عينيها في هدوء وسكينة .





كلمات متناثرة ..

مدت نورة يدها لتدس الرسالة من تحت الباب ، ثم توقفت فجأة وتراجعت بضع خطوات إلى الخلف ، رنت كلماته الغاضبة في أذنيها :

– الرسائل موضة قديمة – توقفي عن كتابتها لي .

هزت رأسها وهي غير مصدقة ، وتساءلت في نفسها بتعجب :

(كيف يكون أديبًا وله هذا الكم الرائع من الكتابات ويكون هذا رأيه في الرسائل ؟ ألم يسمع عن أدب قائم بحد ذاته يسمى (أدب الرسائل) بين ألمع الأدباء العرب والأجانب على حد سواء ؟ ألا يعي ما تعنيه هذه الكلمات عبر الرسائل لكل من يكتبها ؟)

لقد كانت هي نفسها رغم أنها كانت ما تزال في بداية طريقها في عالم الكتابة لا تجد نفسها إلا مع القلم فهو صديقها الذي لم يخذلها قط ومعه تنساب مشاعرها وأفكارها كالجدول بلا انقطاع .

وقفت تتأمل نافذته المضاءة من بعيد ، وقد اتخذت لها مقعدًا في ركن منعزل في الحديقة المقابلة لمكتبه ، هبت فجأة ريح قوية فلفت عباءتها حول جسدها وهي ترتجف

تحسست بيدها الرسالة التي طوتها بعناية في حقيبة يدها ، وقد بدت على وجهها الأسمر النحيل إمارات قلق وتردد .

مر بها رجلان يمارسان رياضة المشي ، وهما يتجاذبان حديثًا صاخبًا حول إحدى البرامج الرياضية ، وقد بدا واضحًا أن أحدهما وقد كان في الخمسين من عمره وقد ترهل كرشه قد بدأ يعاني من الإجهاد رغم تظاهره بالعكس ، إلا أنه تهاوى على أقرب كرسي صادفه وقد تصبب العرق بغزارة على وجهه ورقبته ، فوقف صديقه بجانبه يرش بعض الماء على رأسه من زجاجة صغيرة كان يحملها في يده وهو يمازحه قائلاً :

– ها يا أبا أحمد – يبدو أن العمر له أحكام – أين الشباب والقوة التي تدعيها دائمًا ؟



- الشباب موجود - لكن الجو حار - ألا ترى ذلك ؟

رد عليه بحنق واضح وهو يتحامل على نفسه ليقف من جديد معلنًا بتحدي :

- لنواصل السير - وسأثبت لك أنني شباب .

فأمسكه صديقه من كتفه وهو يربت عليها قائلاً بسخرية :

- لا داعي - أنا أعلم ذلك - لقد تأخر الوقت وقد سرنا اليوم بما فيه الكفاية .

وقفت نورة قرب شجرة تتوسط الحديقة وهي ما تزال تراقب نافذته المضاءة فأدركت أنه ما يزال يعمل في مكتبه ، ترددت للحظات ثم مدت يدها إلى الرسالة لتفردها بعناية قبل أن تتوجه إلى مقعدها ثانية .

فتحت الرسالة لتعيد قراءة ما كتبت فيها للمرة العاشرة :

عزيزي فهد :

لا تتصور كم افتقدك وأشعر بالقلق .

أعلم أنك لا تحب أن أراك وأنت بهذه الحالة ، فأنت حريص كل الحرص على أن يراك الجميع كما أنت دائمًا من القوة والشموخ كالجبل ، ولكنني ورغم بعدي عنك هذه الأيام بعد أن قطعت كل سبل الاتصال في وجهي أشعر بكل معاناتك وأعيشها معك لحظة بلحظة وأتألم لأني لا استطيع مواساتك ولو بكلمة .

أشعر أن القلق يقتلني وينهش ضلوعي كالوحش الضاري بلا رحمة ، وتساؤل مرير يطاردني ليل نهار ويحرمني الراحة (كيف هو الآن ؟ هل يجد من يستمع له ويخفف عنه ؟) .

أتدري ما الذي يزيد من شعوري بالذنب ؟

لأنني من أشرت عليك بالتعامل مع هذا المنتج رغم ما أبديته من تخوّف وتحفظ .



أنا من أقنعك بتجاهل كل ما يقال عنه من تجاوزات مع كل من تعامل معه من الفنانين والكتّاب بحجة أن لكل منهم ظروفه معه وأنك قادر عن الدفاع عن مصالحك إذا لزم الأمر .

لذا لم أتمالك نفسي وبكيت بحرقة ، عندما علمت أنه خدعك وورطك في صفقة كلفتك الكثير .

أريد فقط أن تعلم مقدار أسفي لكل ما تسببت به لك ، أن تعطيني الفرصة لأساندك كما كنت معك دائمًا ، لأنني ورغم غلطتي الفادحة هذه ما زلت أطمح بان أكون بقربك ومعك .

تقبل خالص أمنياتي لك بدوام الصحة والعافية .

تلميذتك المخلصة

نورة

أمسكت الرسالة بيد مرتعشة ، وفكرت مليًا ولكنها في النهاية عدلت عن فكرة إيصالها إليه ،فحثت خطاها نحو سيارتها التي أوقفتها قرب سور الحديقة.

جلست خلف المقود ، وهي تضع رأسها بين كفيها بحزن ، ثم نفخت بقوة وكأنها تزيح همًا ثقيلاً عن صدرها ، ثم قادت سيارتها عبر الشارع المزدحم بالسيارات والمارة .

دخلت المنزل دون أن تلقي تحيتها المعتادة على أمها التي وقفت ترقبها بقلق :

– نورة – ما بك ؟ ولماذا تأخرت ؟ مضت ساعات منذ غادرت مكتبك .

– لا شيء يا أمي – فقط الشوارع كانت مزدحمة بالسيارات .

– هل أجهز لك العشاء يا حبيبتي .

– أنا متعبة ولا رغبة لي في الطعام – تصبحين على خير .



أغلقت باب غرفتها متجاهلة احتجاج أمها ، ثم ألقت بنفسها على السرير تحملق بحزن في السقف ، ثم دفنت وجهها في المخدة وهي تنشج بقوة :

– أه ـــ كم أود أن أطمئن عليه – ليته يرد على اتصالاتي .

كم اشتاق لصوته ، ولنكاته وتعليقاته اللاذعة – لفنجان الشاي الذي يعده لي بنفسه ونحن نراجع سويًا بعض نصوص ومسودات أعماله – إلى (صباح الورد) التي يرد بها على تحيتي كلما اتصلت به صباحًا لأمر ما ألن يدرك قيمة الوقت الذي أقضيه معه – فهو الوحيد الذي يحيل دموعي ضحكات صافية من القلب كلما لجأت له باكية أشكو متاعبي التي لا تنتهي مع مسؤولي البغيض :

– واجهيه يا نورة – قفي أمامه بكل صلابة وعبري عن رأيك فيه –

– لا أستطيع يا أستاذ صدقني ـــ فهو رجل سليط اللسان ولا يفرق في ذلك بين رجل أو امرأة – لا أستطيع .

– تعلمي الصلابة يا نورة قبل أن تجبرك الأيام على ذلك – رقتك وطيبتك لا تنفع مع الجميع – صدقيني – فقط كوني قوية وقولي لا – دافعي عن حقك بضراوة الأسد .

ثم يزأر أمامها بطريقة تمثيلية مضحكة تجعلها تطلق ضحكة مدوية :

– انظري كم تبدين جميلة وأنت تضحكين – دعي عنك هذا المغفل ولنكمل مراجعة المقطع الأخير من المسرحية .

ليته يعطيها الفرصة لترد له الجميل –

ليته يثق بها من جديد ويدرك أنها قادرة على تحمل بعض همومه معه كما تحملها معها دائمًا – ليت كلماتها المتناثرة هذه تصل إليه .



المدمن ..



جرى محمود وسط الأزقة المظلمة بأنفاس متلاحقة ، والعرق يتصبب منه بغزارة وهو يتلفت حوله مذعورًا :

- اللعنة - ما زالوا يطاردونني ---- ماهذه الليلة ؟!!

تناهى إلى سمعه أصوات كلاب تعوي - فازداد خوفه ، واحتمى بأول دهليز مظلم صادفه وهو يرتعش .

- هل سألجو من مطاردة هذه الليلة ؟ إلى متى سأعيش مطاردًا وخائفًا ؟

جلس القرفصاء مستندًا إلى الجدار ، وهو يترقب بخوف أن تمتد يد أحدهم في الظلام في أي لحظة لتقتاده إلى السجن .

سرح بذاكرته إلى سنوات طويلة ماضية ، كان فيها شابًا ذكيًا مفعمًا بالحيوية وكان محبوبًا من أهله وجيرانه ، ولكنه في قرارة نفسه كان يتمنى أن ينال حب شخص واحد فقط - جارتهم مريم .

لقد ملكت مريم عليه فؤاده منذ أول لحظة لمحها فيه وهي تزور أخته منيرة ، وكان يراها أجمل فتاة في الحي ، فهي تنتمي لأسرة محترمة انتقلت لتسكن في حيهم منذ بضع سنوات ، وقد استحوذت منذ انتقالهم على انتباه جميع شباب الحي لجمالها الأخاذ ، ولكنها لم تعر أحدهم اهتماماً رغم محاولاتهم المستميتة لإثارة انتباهها ، وكثيرًا ما نشبت خلافات دامية بينهم بسببها وعندما كانت تعلم كانت تكتفي بهز كتفيها بلا مبالاة وهي تمص شفتيها باستخفاف قائلة :

- إنهم مجرد فتية تافهون لا يستحقون أن تشغل الواحدة منا بالها بهم .

ما زال يذكر كيف أمضى ذات يوم صادفها عن طريق الصدفة أثناء عودته للبيت ليلته وهو يستعيد ابتسامتها وهي ترد على تحيته قبل أن تتوارى مبتعدة ، وتخيل حينها أنها خصته دون بقية فتية الحي بهذه الابتسامة .



كانا يعيشان في منزلين متقابلين و كثيرًا ما كان يصادفها تنشر الثياب في شرفتهم ، فإذا لمحته يتلصص عليها من وراء الشباك المغلق ابتسمت في دلال وانصرفت إلى الداخل .

فكر كثيرًا في طريقة لإيصال مشاعره الملتهبة نحوها وعندما أعيته الحيل أرسل أخته منيرة التي كانت صديقة مقربة لها لعلها تستطيع أن تستكشف ولو بطريقة ما ما يطمئن قلبه .

ظل يومها يسير كالمحموم في غرفته وهو ينتظر عودتها بفارغ الصبر ، ولكنها عادت بعد ساعات أمضتها بصحبتها وهي تجر أذيال الخيبة ، فقد قالت لأخته بمنتهى البرود :

– إن أخاك شاب طيب ومؤدب ومن عائلة طيبة، وأي فتاة تحلم أن يكون من نصيبها ، ولكنه للأسف أمامه مشوار طويل من الدراسة والعمل حتى يكون مؤهلاً للارتباط وتكوين أسرة – من الأفضل له أن ينسى مشاعره الصبيانية نحوي .

أقسم يومها أن يجاهد لينال أعلى الشهادات ويثبت لها أنه جدير بها .

مضت سنوات حرص فيها أن يكون من المتفوقين ، ثم رشحته الدولة لدراسة الهندسة المعمارية في أمريكا .

أوصى أخته وهو يودعها قبل سفره أن توصل إليها خبر ابتعاثه للخارج للدراسة وأقسم عليها أن تأخذ منها وعدًا بأن تنتظره ريثما ينهي سنوات دراسته ليعود ويرتبط بها .

هزت أخته رأسها في شك وهي تودعه :

– فكر في دراستك ومستقبلك الآن يا أخي – لا تفكر فيها ولا في غيرها – ما زال أمامك وقت طويل تفكر بعدها كما شئت بالفتيات والارتباط .

– لا استطيع التفكير في غيرها يا منيرة – وحدها مريم تسيطر



على عقلي وقلبي إنني من أجلها درست وتفوقت ومن أجلها أسافر اليوم ولأجل لا يعلمه إلا الله ومن أجلها وحدها سأحقق المستحيل حتى أكون جديرًا بها .

– ليتها كانت تستحق ذرة من هذا الحب .

همهمت منيرة بحزن :

– ماذا قلت ؟

– لا شيء —— قلت أنه عليك الاسراع في ترتيب شنطتك ، فلم يبق سوى ساعة قبل أن يوصلك أبي إلى المطار .

لوّح لوالدته ومنيرة اللتان وقفتا تراقبانه بعيون دامعة من شرفة منزلهما. ابتسم لهما ثم أرسل قبلة في الهواء بينما كانت عيناه تحملقان في نافذة غرفتها الموصدة

– ليتني أراها قبل سفري ولو للحظة – كم سأشتاق لها وأنا في غربتي .

ظل يلح على أخته بالسؤال عنها وعن أخبارها في كل مكالمة يجريها لأهله فتجيبه باقتضاب أقلقه طويلاً (أنها كما هي).

حتى أجرى المكالمة التي تسبق عودته للإجازة الصيفية ، وكان قد أمضى في غربته الموحشة هذه سنتين كان طيفها يلازمه كظله ليل نهار .

بدا صوتها مضطربًا وكأنها تغالب حزنًا دفينًا تجد صعوبة بالغة في كتمه تحدثت بصوت متحشرج بعدما ألح مرات عديدة في السؤال عنها رغم تهربها المستمر من الرد عليه بصراحة :

– محمود – يكفيك تفكيرًا بمريم فهي بصراحة لا تستحق كل هذا الحب منك – فكر بدراستك لتعود بسرعة لنا فأمك لم تتوقف عن البكاء لحظة منذ سافرت – وأنا اشتقت لصديقي المقرّب وكاتم أسراري – كلنا اشتقنا لك ونريدك أن تعود لنا وأنت تحمل



الشهادة التي حلمت بها طوال حياتك .

– ماذا ؟!! أنساها ؟!! أنت تطلبين المستحيل يا منيرة فمريم أصبحت هدف حياتي بأسرها – أنا اتحرك واتنفس من أجلها – هي معي في صحوي ومنامي– هي الماضي والحاضر والمستقبل هي ———

– يكفي .

صرخت منيرة بهستيرية وهي تنشج بقوة أفزعت محمود فهتف بتوسل :

– منيرة ما بك ؟ لم أركِ حزينة إلى هذه الدرجة هل حدث مكروه مريم ؟ أرجوك أخبريني قبل أن أجن .

– مريم – مريم تزوجت من ثري عربي وغادرت معه إلى بلاده دون رجعة .

حينها أحسّ أن روحه قد غادرت جسده كما غادرت هي – لم يعد لحياته أي قيمة – لم يعد هناك ما يحيا لأجله بعد أن ضاع منه حب حياته وللأبد – فجأة تلاشت الصور من أمامه ولم يعد يشعر بشيء ، ولم يفق إلا وهو ممدد على سرير في المستشفى وقد تحلق أفراد أسرته من حوله يرقبونه بخوف ووجل .

علت الابتسامات الوجوه حينما فتح عينيه بجهد فيما علا نحيب أمه وهي تتهاوي على الكرسي خلفها وهي ترفع بصرها إلى السماء بخشوع مرددة :

– اشكرك يا رب وأحمدك – لقد عاد ولدي أخيرًا إلى وعيه – إنه بخير .

دنت منه منيرة وهي تهمس في رقة :

– محمود – محمود – هل تسمعني ؟

هو في وطنه إذن ، وبين أهله !!



ولكن كيف عاد ؟ وكم مضى عليه في غيبوبته هذه ؟

مرت الأيام التالية حزينه موحشة دون طعم رغم محاولات أسرته الجاهدة للترويح عنه وتسليته ، ولكن ذكرى مريم والجرح الغائر الذي تسبب فيه زواجها المفاجئ ثم هجرتها الأبدية بلا رجعة كانتا أكبر من احتماله .

حتى زاره صديقه سعيد وكان شابًا عابثًا طردته إدارة المدرسة لتكرار رسوبه ولتكرار تسببه في مشاكل مع الطلبة والمدرسين ، وحتى والداه يئسا من محاولة تقويمه وإرجاعه لصوابه ، فتركاه وشأنه دون توجيه آملين أن يصلح الزمن فيما فشلا فيه وكم كانا مخطئين .

كان والداه قد منعاه طوال فترة دراسته الثانوية من مخالطته أو استضافته في منزلهما .

ولكنه وهو في هذه الحالة النفسية السيئة بعد فقدانه لمريم لم يجد والداه بداً من التغاضي عن زيارات سعيد االمتعددة له طوال فترة مكوثه في المستشفى ولم يخمنوا قط أن حالة السرور الكبيرة التي كانت تبدو على محمود بعد كل زيارة لسعيد كانت بسبب حبوب صغيرة كان يزودها بها بحجة أنها الوصفة السحرية التي ستنسيه صدمته العاطفية وتجعله في حالة رضا بكل ما حوله :

- ولكن يا أم محمود - كلانا يعرف سعيد جيدًا - وقد جاهدنا طويلاً لإبعاد محمود عنه وعن تأثيره السيئ .

- أعلم يا أبا محمود - ولكني مستعدة للتعاقد مع الشيطان نفسه إن استدعى الأمر في مقابل أن أعيد محمود كما كان في السابق - انظر إليه .

نظرت إليه بإشفاق وقد راح في سبات عميق بعد أن حقنته الممرضة بحقنة تساعده على النوم بعد أن ظل مستيقظًا دون نوم ليومين متواصلين .

كان وجهه شاحبًا وقد أحاطت هالات سوداء بعينيه ، وقد نبتت لحيته



لتضفي عشرات السنين على عمره الحقيقي .

– انظر إليه بالله عليك – أهذا هو ولدنا الحبيب محمود . وغطت وجهها بكفيها وهي تنشج بحزن كبير :

– أعلم – لو كنت أعلم أن فقده لمريم سيحطمه هكذا – لكنت جثوت على ركبتي أطالبها ووالدها بعدم الموافقة على هذه الزيجة المشئومة .

– لا نستطيع منع مريم وأهلها من اختيار ما يرونه مناسبًا لهم فكل عائلة تريد الافضل و الأنسب لبناتهن – لا أنكر أنه لو سنحت هذه الفرصة لابنتنا منيرة لما ترددت لحظة في القبول

– ولكن ما يشغلني هو محمود –كيف نستطيع مساعدته على تخطي هذه المرحلة البائسة من حياته – كيف نجعله ينساها –

– لا يبدو الموضوع سهلاً كما تتصورين .

– هل نزوجه – ما رأيك لو نطرح عليه بعض أسماء الفتيات اللاتي في سن الزواج من عائلتينا ليختار منها ؟

– إياك – لقد كلمته منيرة عن صديقتها وفاء في محاولة يائسة منها لإخراجه من حالة الحزن التي كانت تلازمه فهاج وصاريصرخ بهستيرية حتى اضطرت الممرضات لحقنه بحقنتين مهدئتين – وقد حذرنا الطبيب بعدها من أي محاولة مماثلة .

– إذن علينا أن نغض الطرف مرغمين عن زيارات سعيد له فهو الوحيد الذي يستطيع جعل محمود في حالة هدوء وراحة وإن كانت غريبة بعض الشيء

– حسنًا على الأقل حتى يتجاوز محمود هذه الفترة الحرجة من حياته .

تحسنت حالة محمود بمرور الأيام وعاد لممارسة حياته اليومية ، ولكنه لم يعد



كما كان في السابق فقد تحول بين ليلة وضحاها إلى شاب متمرد على كل القوانين والأنظمة التي اعتاد الخضوع لها صاغرًا في السابق .

بات لا يتورع عن الشجار والصراخ مع جميع من حوله بل وتطور الأمر إلى ضرب أخته منيرة ، وتحطيم الأثاث لأتفه الأسباب ، وبات لا يعود إلى المنزل إلا في ساعات الصباح الأولى رغم تعنيف والده وشجاره المستمر معه .

وجاءت الطامة الكبرى حين اكتشفت أمه أثناء ترتيب خزانته كمية من الحبوب غريبة الشكل خبأها محمود بين ملابسه بطريقة متقنة .

تذكرت أمه حينها المبالغ الكثيرة التي كان يطلبها من والده بحجج مختلفة عندما توقف عن تزويده بها حتى يعود إلى سابق طبيعته معهم ، لجا إليها مستغلاً حبها الجارف له ، عضت الأم على شفتيها نادمة وهي تردد :

- كم كنت ساذجة وغبية - أعتقدت أن زوجي يقسو كثيرًا على محمود - لم أكن أعلم أنه كان أكثر حكمة وبعد نظر مني - يا لقلب الامهات كم يفسد بحبه اللامتناهي الأولاد ويدمرهم دون قصد .

لم تجد الام بداً من مصارحة زوجها بالأمر ، ولقد كان حاسمًا حين خيّر محمود بين بقائه في المنزل بينهم وخضوعه لعلاج مكثف ضد الإدمان بمحض إرادته أو أن يضطر إلى الإبلاغ عنه وعن سعيد وحينها سيتم إيداعه في مصحة للإدمان ويخضع للعلاج القسري بأمر القانون .

لم يجد محمود بداً من الفرار من منزله ، والاختباء في مكان مجهول بمساعدة سعيد بعد أن أقنعه بسرقة ما خف حمله وغلا ثمنه من بيت عائلته .

تذكر كلمات أخته الأخيرة قبل هروبه من المنزل :

- صدقني يا أخي — سعيد ليس بالصديق المخلص الذي تظنه أنه يريد



استغلالك والاستيلاء على قدر ما يستطيع من نقودك – ثم سيتخلص منك بعد أن تفقد كل شيء صحتك وسمعتك وأهلك – سلّم نفسك يا محمود للشرطة وارشد عن سعيد اكشف لهم عن أوكار المخدرات الكثيرة التي يديرها ويدمر بها الآلاف من أمثالك من الشباب – عد إلى رشدك يا محمود – سيضعونك في مصحة للإدمان ريثما تتعافى لتعود كما كنت شابًا سليمًا مفعمًا بالشباب والحيوية –

يكفينا ويكفيك ما سببته لنا من فضائح وآلام – فكر بي وبأمك المسكينة – أنها تموت في اليوم ألف مرة – كلما رنّ الهاتف أو جرس الباب و تظن إنهم جاءوا ليبلغونا أن مكروهًا ألمّ بك — أرحمها ما تبقى لها من عمر وهو ليس بكثير

أسند رأسه إلى الجدار من خلفه وبدأ يحك جميع أجزاء جسمه بقوة :

– أه – لقد انتهى مفعول المخدر – احتاج لجرعة جديدة منه .

بحث في جيوبه لفترة – فلم يجد شيئًا –

– اللعنة – لقد نفذت – أين أجد سعيد الآن ؟

ثم تذكر أن الشرطة قد قبضت عليه بالأمس بعد أن نصبت له كمينًا ، فكر قليلاً في الحالة المزرية التي وصل إليها فتساءل في ضيق وهو يحك جسمه وأنفه :

– إلى متى حقًا يا محمود ؟ إلى متى ؟

انتفض واقفًا فجأة في مكانه ، ثم استجمع ما تبقى من قواه وخرج ليسير في اتجاه مطارديه ، لمحه أحدهم فصرخ في رفاقه :

– هاهو – أقبضوا عليه قبل أن يهرب منا ثانية .

التفوا من حوله ، فاستسلم لهم في خضوع ، ثم سار معهم مكبل اليدين بينما كانت الشمس ترسل أول تباشير يوم جديد .

و كان يومًا جديدًا بالفعل في حياة محمود .





وداعاً للماضي ..

عرفته منذ سنوات طويلة ، كان حينها كاتبًا في مقتبل حياته المهنية ، وكانت هي قد تخرجت حديثًا من الجامعة وعينت في إحدى رياض الأطفال التابعة لإحدى المدارس الخاصة .

كانت تهوى الكتابة ، وبالتحديد كتابة الشعر ،وقد نشرت لها العديد من القصائد في المجلات المحلية ، كما كانت تصدر نشرة أدبية شهرية في الجامعة تضم إلى جانب أشعارها ، ما يكتبه زملاؤها من خواطر أدبية وقصص قصيرة.

اقترحت عليها إحدى زميلاتها في الروضة ، بعدما قرأت لها بعض أشعارها :

- - لماذا لا تتصلين به ؟ إنه يشجع المواهب الشابة ويتبناها .

ترددت كثيرًا ، ولكنها في أحد الأيام حسمت رأيها :

- - ألو – الأستاذ جمال .

- نعم أنا جمال –

- لم يسبق لنا التعارف من قبل – ولكني – من هواة كتابة الشعر وأحببت أن أعرض عليك بعض النماذج منها— لقد سمعت الكثير عن تبنيك وتشجيعك للمواهب الجديدة

- يسعدني ذلك يا أخت — !!

- أمل – اسمي أمل واعمل مدرسة في روضة أطفال .

- مهنتك تنم عن شخصيتك المميزة ، فقليلون هم الذين يتحملون بصبر تربية الأطفال والعناية بهم ، ويجيدون التعامل معهم .

- لقد نشأت في أسرة كبيرة العدد ، وكثيرًا ما عهدت إليّ أمي بمسؤولية رعاية أخوتي الصغار إذا ما انشغلت بأمر ما ، لذا لا أجد أي صعوبة في التعامل مع الأطفال .



توالت المكالمات بعدها بينهما ، وكانت معظم أحاديثهما تدور حول الشعر فيتناقشان حول إحدى قصائدها ، أو حول ما كان يرسله لها من أشعار لشعراء شباب في مثل عمرها .

اتسمت علاقتهما منذ البداية بالصراحة والاحترام وتطرقا خلالها عديدًا لعلاقته المضطربة بزوجته بسبب تسلطها ومحاولتها السيطرة بشكل قاتل على كل القرارات المصيرية في حياتهما الزوجية دون أن تعطي المجال لأدنى فرص التفاهم وتبادل وجهات النظر وكان يحلو له أن يلقبها بهتلر رغم محاولاتها المستميتة لحثه على المحاولة الجادة في البحث عن حلول بديلة قد تسهم في إذابة جبال الجليد التي ترتفع وتعلو شيئًا فشيئًا فيما بينهما .

حتى جاءت نهاية علاقتهما على غير ما تتوقع .

بدأت تشعر بأنه بات يكثر من التلميح برغبته في البدء في حياته من جديد ، وأنه لم يعد يستطيع تحمل المزيد من تسلط زوجته وعنادها ، وزاد من حدة المشاكل ما بينهما قبولها للعمل في صحيفة خليجية براتب مجزي دون استشارته أو التفكير في مصيره وابنتيه الصغيرتين ، وخاصة أن أحداهما كانت تعاني منذ طفولتها من صعوبات في التنفس ، وتحتاج لرعاية واهتمام كبيرين منها .

– إنها عديمة الإحساس – لم تفكر للحظة فيها – وفي نوبات ضيق التنفس المفاجئة والمتكررة التي تتعرض لها – أنها تنجو من الموت في كل مرة بأعجوبة .

– لا تظلمها يا جمال – هي أم ومن المؤكد أنها تحب ابنتها مثلك وأكثر –

– أنها تحب وظيفتها ومكانتها الاجتماعية أكثر – لطالما كنت وابنتاي في المرتبة الثانية إن لم تكن الأخيرة في سلسلة



اهتماماتها.

– أنت تبالغ كثيرًا .

– وأنت تدافعين كثيرًا – أنتن النساء جميعًا تدافعن عن بعضكن البعض ولو كنتن على خطأ .

– وهل ستحوّل النقاش إلى هجوم على المرأة – إذن استعد للحرب .

– لا داعي – لست في مزاج يسمح لي بمثل هذا النقاش .

– أعلم – وأنا آسفة لقد حاولت فقط أن أغير الموضوع لتهدأ وتخفف من عصبيتك – ربما حينها تستطيع الوصول لحل مناسب ومتعقل لمشكلتكما معًا .

– مشكلتنا لن يجد مجلس الأمن نفسه أي حل لها .

– عدت للسخرية ثانية .

– يقولون أن شر البلية ما يضحك – عمومًا لدي اجتماع بعد عشر دقائق أكلمك لاحقًا إلى اللقاء .

– إلى اللقاء .

تهربت كثيرًا من تلميحاته حتى حاصرها في يوم ما بسؤال مباشر دون أن يعطيها أي مجال للمراوغة :–

– أمل – أنا أحتاجك كثيرًا في حياتي – أنت الوحيدة التي تشعرني بالسعادة والراحة وأنني رجل له قيمته –

– جمال – أنت تستحق التقدير والاحترام – وأنا معك في أي وقت تحتاجني فيه .

– كفاك تهربًا من الموضوع – تعلمين قصدي – فما أعنيه يتعدى كثيرًا وجودك الحالي في حياتي – أنا يا أمل أريدك زوجة – الزوجة التي حلمت وتمنيت وجودها دائمًا في حياتي .



- جمال - لديك زوجة وأطفال - وحياتك لا ينقصها سوى شيء من التفاهم والصراحة وكسر الحواجز التي بنيتها أنت وزوجتك بينكما.

- أنت تعلمين جيدًا أن هذه الحواجز لن تزول بيننا أبدًا - ولولا وجود البنتين بيننا لانفصلت عنها منذ فترة طويلة - أننا ننام منذ سنوات في غرفتين منفصلتين ولا نكاد نتبادل كلمة واحدة طوال اليوم - أنني أحيانًا أنسى شكلها ولون شعرها وحتى يصعب عليّ أحيانًا تذكر ما كانت ترتديه وهي خارجة للعمل .

- عدنا للمبالغة - صدقني يا جمال إذا سألتني عما كنت ارتديه بالأمس لعجزت عن الرد .

- نحن زوجان يا أمل ننام تحت نفس السقف ، ولدينا ابنتان نشترك في تربيتهما والعناية بهما ، صدقيني يا أمل صرت أنت أقرب لهما من أمهما - فأنت تعلمين بأمور و تهتمين بأشياء لا تكلف هي نفسها عناء التفكير بها .

- لكنها ستظل دائمًا أمهم يا جمال .

- أنت أمهم الفعلية — لقد شاركتني لحظات لا تنسى في حياتهما - كانت هي حينها في شغل شاغل بمقالاتها وتقاريرها الصحفية - تذكرين عندما هرعت لنقلها للمستشفى بعد تلقيك مكالمة من الخادمة وهي تبكي بسبب تعرض الصغيرة لنوبة ضيق تنفس .

- لقد اتصلت بي بعد فشلها في الاتصال بكما سويًا .

- كنت حينها في مؤتمر صحفي في أحد الفنادق ، وقد اضطررنا لقفل هواتفنا كما تقتضي القوانين ، بينما أقفلت هي خطها أثناء مشاهدتها لأحد الأفلام في إحدى دور السينما مع صديقاتها.



– عمومًا – لقد نجت الصغيرة وتم إسعافها في اللحظة الأخيرة.
– بفضلك أنت ، بينما لم تحرك هي نفسها للاطمئنان على بناتها طوال ذلك اليوم حتى عودتها متأخرة في المساء كعادتها – أمل أريد ردك الآن – هل تقبلين الارتباط بي .
– في الحقيقة – في الواقع – بصراحة يا جمال لقد كنت من المعارضات على الدوام من الارتباط برجل متزوج – لا أصلح لدور الزوجة الثانية .
– لن تكوني زوجة ثانية – ليست هي زوجة فعلية – ولن تشعر أبدًا بأي تغيير في حياتها – ولكني في أمس الحاجة لك – أرجوك يا أمل فكري في الموضوع —— من أجلي ومن أجل بناتي —— أرجوك .
– حسنًا —— دعني أفكر في الموضوع .

فكرت مليًا لأسابيع توقفت فيها عن محادثته تمامًا لتبعد نفسها عن أي ضغط أو تأثير ، ولكنها شعرت أنها غير مستعدة لخوض مثل هذه المغامرة الغير مضمونة النجاح ، فهي لا تزال في مقتبل حياتها ، ولم تجد مبررًا يجبرها أن تكون زوجة بديلة في الظل وتتحمل في بداية حياتها الزوجية مسؤولية طفلتين إحداهما تعاني من مشاكل صحية خطيرة وتحتاج لاهتمام ورعاية كبيرين ، رغم حبها الشديد لهما إلى جانب توقع رفض أسرتها الشديد للموضوع برمته .

لم تجد بدًا في النهاية من التهرب من مكالماته بأعذار مختلفة ، وعندما أصر على معرفة رأيها الصريح في موضوعهما ، أدعت أن هناك من تقدم يطلب يدها من أبناء عمومتها ، وأن أسرتها مصممة على موافقتها .

يعلم الله مقدار معاناتها ، والفراغ العاطفي الكبير الذي خلفه فراقهما ، ولكنها كانت سعيدة في قرارة نفسها لأنها نجحت في إنقاذ حياة أستاذها



من الانهيار وربما أقنعت نفسها بذلك حينها .
مضت سنوات طويلة تعرفت خلالها على شاب طيب من أسرة محترمة ، وتزوجته وأنجبت منه أربعة من الأطفال ، ولكن يشاء القدر أن تفقده فجأة في حادث سيارة مروع ليتركها وحيدة تصارع الحياة من أجلهم .
وذات يوم اتصلت بها صديقتها زهرة تدعوها لحضور ندوة شعرية يشارك فيها العديد من الشعراء البارزين فاعتذرت منها وهي محرجة :
- آسفة يا زهرة - لا استطيع - فالأطفال ومتطلبات البيت وأعبائه يأخذان كل وقتي .
- أعلم هذا يا أمل ، ولكنك تحتاجين لهذه الفسحة من الوقت
-انظري لنفسك لقد كبرت عشرات السنين - لم تعودي أمل النابضة بالنشاط والحيوية التي أشعلت الجامعة بأشعارها وكتاباتها .
- لا أدري - ربما أفكر بالحضور إذا قبلت أختي وداد أن ترعاهم أثناء غيابي .
- ستقبل - هي تحبهم وهم كذلك - لا مزيد من الأعذار سأمر عليك لنذهب سويًا في تمام الساعة الثامنة مساءً —— إلى اللقاء.
هزت أمل رأسها باسمة وهي تضع السماعة ، فقد أنهت زهرة المكالمة قبل أن تسمع ردها حتى لا تمنحها الفرصة للتردد .
وحدث في ذلك المساء ما لم تتوقعه أمل ——— لقد وجدت نفسها وجهًا لوجه مع الماضي !! —— كان جمال هو عريف الندوة ومنظمها .
حاولت جاهدة أن تتذكر كم من الزمن مر منذ آخر لقاء بينهما ،وهي تجلس بقرب صديقتها زهرة التي اختارت لهما مقعدين في الصف الثاني.
- (ياه ——— عشرون عامًا —— لقد مرت الأعوام بينهما كالحلم ——— لم



يتغير كثيرًا عن آخر مرة رأته – فقط زاد وزنه بعض الشيء ، وتناثرت بعض الشعرات البيض في مقدمة رأسه) .

أطرقت برأسها وهي تفكر :

(هل سيعرفني ؟ هل ما زال يذكرني بعد كل هذه السنين ؟)

ثم تذكرت ابنتاه وزوجته ، كم تشتاق لرؤية طفلتيه .

ابتسمت وهي تتذكر:

– (طفلتيه —— لم تعودا طفلتين – لابد أنهما الآن شابتان جميلتان في الجامعة)

وبعد الندوة أصرت زهرة على الذهاب للسلام عليه وشكره على هذه الندوة التي استمتعنا بحضورها ، حاولت أمل التعذر بالأولاد ولكن زهرة سحبتها بقوة وهي تردد :

– أولاد —— عيشي لنفسك ولو لساعات .

وقفت أمامه وهو يتأملها باسمًا للحظات قبل أن يهتف بحرارة:

– أنت أمل – أليس كذلك ؟ يااللسنين – كم مضي منذ آخر لقاء بيننا ؟

– عشرون عامًا .

– لا أصدق – لم يعد المرء يشعر بعدد السنوات التي تمر عليه —— تبدو جميعًا متشابهة –

ثم نظر إليها متفحصًا وهو يهمس :

– لم تتغيري كثيرًا – لولا بعض الزيادة في وزنك .

– هذا طبيعي بعد إنجاب أربعة أطفال .

– أربعة – كنت ترددين دائمًا أنك ستنجبين عشرة أو عشرين .

– مجرد كلام – هذا مستحيل في ظروف حياتنا الحالية – ثم لو كان القدر أمهلني كثيرًا لربما حققت رغبتي هذه .



– ماذا تعنين بذلك ؟

– لقد ترملت منذ فترة .

– وهل تفكرين ـــ أعني – الارتباط من جديد ؟

تلعثمت أمل محرجة ، فقد صدمت لسؤاله المباغت هذا ـــ لقد تغير كثيرًا

– صار أكثر جرأة .

– لا أدري ـــ لم أفكر بهذا الموضوع قط – ما زالت جروحي لفقده لم تندمل بعد – وأطفالي ما زالوا صغار –

تحدثت معه طويلا حول ظروف حياتها بعد فقدها لزوجها ، وحدثها بدوره عن وفاة ابنته الصغرى بعد نوبة ربو حادة فشل الأطباء من إنقاذها منها .

تهاوت أمل على الكرسي خلفها وهي تردد غير مصدقة :

– ماتت – سمر ماتت – أنا آسفة ـــ أنا .

ثم دفنت وجهها بين كفيها وهي تنشج بحزن ظاهر ، فربت جمال على كتفها برقة وهو يهمس :

– صدقيني لم تتأثر والدتها كما تأثرت ، لم تبد الحزن والندم على إهمالها حتى فارقت الحياة قبل بلوغها السابعة عشر من عمرها اكتفت كعادتها بتوجيه أصابع اللوم لي وللخادمة المسكينة التي تولت تربيتها والاهتمام بها طوال هذه السنين ، ولولا معارضتي الشديدة لألقت بها بالسجن .

– غير معقول –

– بل هو منطقي ـــ لن تتغير هذه البائسة تحت أي ظرف ولو كان لفقدها لابنتها وبهذه الصورة الحزينة – تصوري لقد فارقت الحياة بين يدي الخادمة قبل وصولي أو وصول سيارة الإسعاف التي طلبتها قبل مغادرتي مسرعاً المكتب في طريقي للبيت بعد أن اتصلت الخادمة تستنجد بي.



ابتلعت أمل ريقها بصعوبة وهي تتخيل هذا المنظر المروع ، وحمدت الله في سرها لسلامة أولادها من أي مرض يهدد حياتهم وسلامتهم.

- وكيف هي الآن ؟ ---- أقصد زوجتك هل تجاوزت الأمر ؟

- لم يعد أمرها يعنيني - لقد انفصلنا بعد رحيلك بعام - لقد غادرت المنزل وتركت طفلتيها وسافرت لعملها الجديد - وحتى عندما علمت بوفاة ابنتها - عادت لتقضي عدة أسابيع مع ابنتها ثم تعذرت بمشاغل وظيفتها الجديدة لتعود من جديد وخاصة بعد رفض ابنتها لمرافقتها وتركي لوحدي - أخبارها تصلني من خلال ابنتها التي تحرص على الاتصال بها بين الحين والآخر .

افترقا على أن تتصل به في عمله الجديد في إحدى دور النشر لتعرض عليه بعض من أشعارها التي كتبتها حديثًا ، وتعددت لقاءاتهما وفي كل مرة يكرر عليه طلبه للارتباط ، فتعتذر إليه بلباقة وترجوه أن تظل علاقتهما كما هي فهي تحتاج له كأخ وأستاذ وصديق تبادله كل التقدير والاحترام وهو يحدثها عن حاجته لوجودها كامرأة وزوجة في حياته ، حتى يئس أخيرًا من إقناعها ، وبدأت تشعر بتغير كبير في معاملته لها .

لم يعد يحرص على الدقة في مواعيده معها كعادته ، وكثيرًا ما اعتذر عن مواصلة حديثه معها بأعذار مختلفة تبدو مفتعلة كأن يقاطعها فجأة بقوله :

- عفوًا ---- لدي مكالمة دولية هامة - سأعاود الاتصال بك .

أو (اتصلي بي بعد ساعة) .

شعرت به وهو يحاول التملص والابتعاد بهدوء ، وقد همت هي لنفسها بقطع علاقتها به لولا بعض العبارات الغامضة التي كانت تند منه دونما شعور ، وتدل على معاناة قاسية وحرمان أكبر فبقيت رغم ضيقها الشديد من أسلوبه الجديد في التعامل إكرامًا لما كان بينهما من ود واعترافًا منها بجميله عليها طوال هذه السنين كأستاذ تعهدها بالرعاية والإرشاد .



حتى حدث ما كشف لها الحقيقة واضحة كالشمس .
كان قد حدد لها موعد لتحادثه في تمام الساعة الثالثة مساءً لمناقشة ترتيبات الندوة الأدبية التي تقيمها مدرستها لطلاب المرحلة الثانوية ، وقد اختارته شخصيًا ليكون من بين ضيوفها المتحدثين عن تجاربهم الأدبية .
وبينما هي تحادث سكرتيرته وتطالبها بتحويل المكالمة إليه سمعت صوته يطلب منها دون أن يعلم أن صوته يصلها أن تبلغها أنه اضطر للمغادرة مبكرًا لظروف طارئة وكم صدمتها عبارته القاسية للسكرتيرة :
- لا وقت عندي لها ولا لندواتها الطفولية ـــ اعتذري منها وأخبريها أن ظروف في العمل طرأت وأن جدول مواعيدي لا مجال فيه لأي ارتباطات جديدة وحتى إشعارآخر - عديها أنك ستتصلين بها في أقرب فرصة .
كانت أمل تستمع لكلماته الجارحة، وقد تحجرت دموع ساخنة في مقلتيها ويبست الكلمات في حلقها فاكتفت ببضع الهمهمات وهي تودع السكرتيرة
لا تدري كم من الوقت مضى وهي جالسة بشرود وكانت تشعر بدوار شديد . ولم تفق إلا على يد صغيرة تهزها بعنف :
- - ماما ـــ ما بك لا تردين عليّ - أنا جائع .
كانت يد صغيرها محمد .
حينها فقط تذكرت أنها قد كرست حياتها من أجل هدف أسمى من صدمتها وأحزانها هذه بكثير ، فاحتضنته بقوة إلى صدرها وهي تردد بحب كبير : -
- حاضر يا حبيبي - ثواني ويكون العشاء جاهزًا - اذهب واطلب من أخوتك أن يغسلوا أيديهم ويحضروا المائدة .
تحاملت على نفسها وهي تتجه ببطء نحو المطبخ وهي تردد بحسرة :
" خسارة يا أستاذي الكبير - كل هذا لأني أردت الحفاظ على



علاقتنا مميزة وعظيمة بعيدًا عن أي مسؤوليات قد لا تجد نفسك مستعدًا لها بعد - ليتك بقيت بعيدًا كما كنت - لما تشوهت صورتك في ذاكرتي - ولما شهدت بنفسي ما أحدثه الزمن فيها من تشويه وتخريب - ولكن لا —— ستبقى صورتك أمامي كما هي —وسأمحو بمحض إرادتي الصورة الأخرى منها لتبقى على الدوام أستاذي الكبير والعظيم - فوداعًا للماضي الجميل —— ولتهنأ وحدك بحياتك الجديدة كما شئت) .

الفهرس

المؤلفة في سطور :

- من مواليد عام 1961م.
- حاصلة عى بكالريوس في الآداب والتربية تخصص لغة عربية من جامعة قطر 1982م.
- تعمل حالياً كمعلمة أولى للغة العربية بإحدى المدارس الإعدادية بالبحرين.
- بدأت كتابة القصة في سن مبكرة ونشرت قصصها في جرائد عدة منها الراية القطرية والخليج الإماراتية والأيام البحرينية.
- فازت في عام 2007م بالمركز الأول في المسابقة السنوية للقصة القصيرة التي تنظمها وزارة التربية والتعليم لهيئاتها الإدارية والتعليمية.
- **من بين ما تم نشره لها من قصص :**

من القصص الإجتماعية :

المدمن - شيء من الفرح - لحظة غادرة - صدفة - سكون في العاصفة - لقاء مع الماضي - القرار الأخير - كان حلماً - دهاليز من الماضي - سؤال بدون إجابة - وداعاً للماضي - أمسية حالمة - حب بين الثلوج - طلاسم الحب - خفقة قلب.

ومن القصص الوطنية :

عناقيد الغضب - طريق اللاعودة - الطلقات الغادرة - غزالة - الطائر الذبيح - العرس الدامي - النمر.